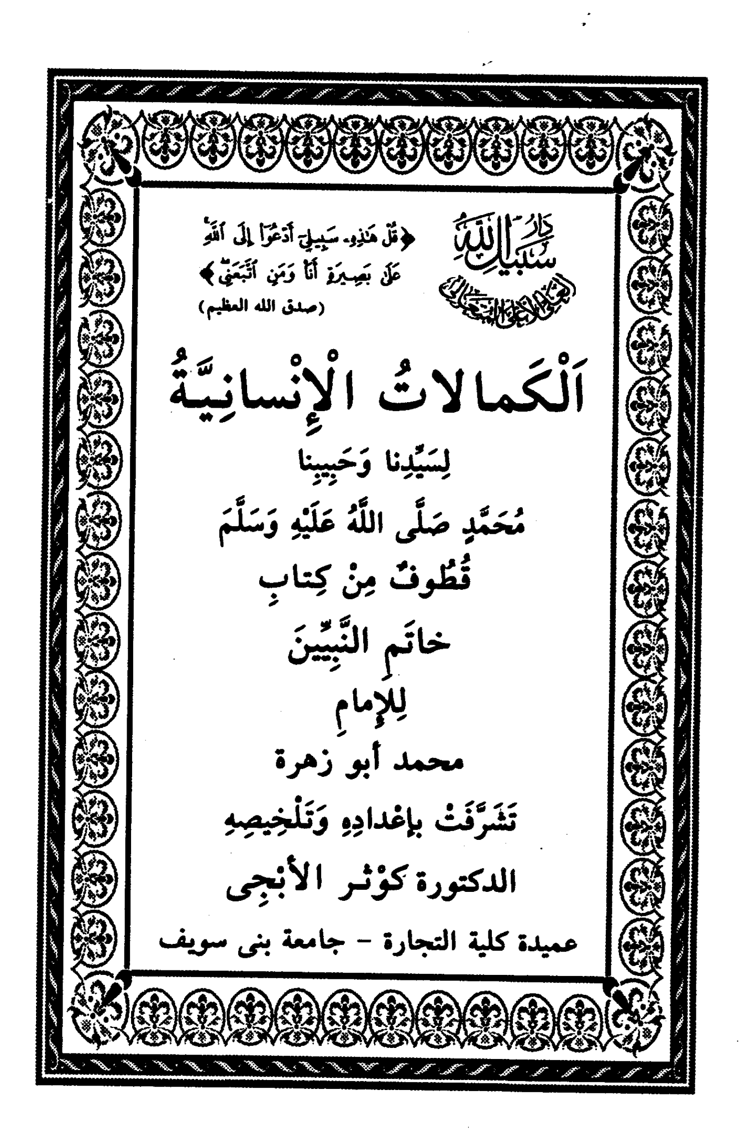


دار سبيل الله

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾

(صدق الله العظيم)

# اَلْكَمالاتُ الْإِنْسانِيَّةُ

## لِسَيِّدِنا وَحَبِيبِنا

## مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قُطُوفٌ مِنْ كِتابِ

## خاتَمِ النَّبِيِّينَ

لِلإمامِ

محمد أبو زهرة

تَشَرَّفَتْ بإعْدادِهِ وَتَلْخِيصِهِ

الدكتورة كوثر الأبجى

عميدة كلية التجارة - جامعة بنى سويف

## ﴿ تقديم ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

والْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ،
والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ والاهُ.. وَبَعْدُ :
فإنَّ العُقَلاءَ مِنْ مُفَكِّرِى الْبَشَرِ
يتَّفِقُونَ عَلَى أنَّ الْعالَمَ بِأَسْرِهِ يَعِيشُ حالَةً
مِنَ التَّرَدِّى الْفِكْرِىِّ والِانْحِطاطِ الأَخْلاقِىِّ ..
وَذٰلِكَ بِفِعْلِ عَوامِلَ عَدِيدَةٍ.. مِنْ أَهَمِّها :
ذٰلِكَ السُّعارُ الْمادِّىُّ الَّذِى يَلْهَثُ وَراءَه النّاسُ،
وَيُضَحُّونَ فِى سَبِيلِهِ بِكُلِّ غالٍ وَنَفِيسٍ..
وَمِنْ بَيْنِ ما ضَحَّوْا بِهِ «الْجانِبُ الأَخْلاقِىُّ»
الَّذِى يُعَدُّ رُكْنًا أَساسِيًّا فِى حَياةِ الإِنْسانِ ؛
وَلِأَنَّ الدِّينَ الإِسْلامِىَّ هُوَ الدِّينُ الْخاتَمُ ..
جاءَ بِهِ نَبِىٌّ خاتَمٌ ..

فَقَدْ أَعْلَى مِنْ قِيمَةِ «الأَخْلاقِ» ، وَرَفَعَ مِنْ شَأْنِها ،
وَجَعَلَها أَمارَةً عَلَى الْكَمالِ الإِنْسانِيِّ . .
وَجَسَّدَ الإِسْلامُ الْكَمالاتِ الإِنْسانِيَّة
- وَمادَّتُها « الأَخْلاقُ » -
فِى أَفْضَلِ واحِدٍ مِنَ الْبَشَرِ . .
وَهُوَ سَيِّدُنا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
وَأَمَرَنا رَبُّنا بِالِاقْتِداءِ بِهِ فِى قَوْلِهِ سُبْحانَهُ :
﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ
لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ .

( سورة التوبة )

هٰذا الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
الَّذِى وَصَفَهُ رَبُّهُ - تَبارَكَ وتَعالَىٰ - بِقَوْلِهِ:
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾

( سورة القلم )

والَّذِى قالَ هُوَ عَنْ سَبَبِ بَعْثَتِهِ :
« إِنَّما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكارِمَ الْأَخْلاقِ » . .

* * *

وَأَىُّ واحِدٍ مِنَ الْبَشَرِ لَوْ جَرَّدَ نَفْسَهُ مِنَ الْهَوَى ،

وَتَأَمَّلَ أَخْلاقَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

ما وَسِعَهُ إِلَّا إِكْبارُهُ وَإِجْلالُهُ ! . .

بَلْ والإيمانُ بِهِ واتِّباعُهُ . . بَلْ وَمَحَبَّتُهُ . .

لِأَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ما جاءَ

يَطْلُبُ مُلْكًا وَلا جاهًا . . وَلا سُلْطانًا . . وَلا ثَراءً . .

وَإِنَّما لِيَهْدِيَ الْبَشَرِيَّةَ لِما فِيهِ رُشْدُها ،

وَفَلاحُها وَفَوْزُها عاجِلًا وَآجِلًا ! . .

وَكَثِيرٌ هُمْ هٰؤُلاءِ الَّذِينَ كَتَبُوا

عَنْ سِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

الَّتِي تُعَدُّ تَرْجَمَةً واقِعِيَّةً لِأَخْلاقِ الْقُرْآنِ ؛

فَقَدْ كانَ خُلُقُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْقُرْآنَ . .

يَرْضَى لِرِضاهُ ، وَيَغْضَبُ لِغَضَبِهِ . .

بَلْ كانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قُرْآنًا يَمْشِي بَيْنَ النّاسِ ! . .

* * *

وَدارُ «سبيل الله» - وَقَدْ نَذَرَ الْقائِمُونَ عَلَيْها
أَنْ يُقَدِّمُوا الْفِكْرَ الإِسْلامِيَّ السَّوِيَّ ،
وَيَنْقُلُوا هٰذا الْفِكْرَ الْقَيِّمَ إِلَى الْعالَمِينَ -
تَسْعَدُ بِأَنْ تَقْتَطِفَ تِلْكَ الصَّفَحاتِ الْمُضِيئاتِ
مِنْ كِتابِ «خاتَم النَّبِيِّينَ» لِلإمام محمد أبو زهرة :
والَّذِى خَصَّهُ بِالْحَدِيثِ عَنِ «الْكَمالاتِ الإِنْسانِيَّةِ
لَدَى رَسُولِ الإِنْسانِيَّةِ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».
وَقَدْ قامَتِ الدُّكْتُورَةُ/ كوثر عبد الفتاح الأبجِيّ
عَمِيدَةُ كُلِّيَّةِ التِّجارَةِ جامِعَة بَنِى سُوَيْف
بِاقْتِطافِهِ وَتَلْخِيصِهِ،
ثُمَّ تَرجَمَتْهُ نَجْلَتُها الآنِسَةُ دُعاء نُور
إِلَى اللُّغَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ، لِيَعُمَّ خَيْرُهُ، وَيَنْتَشِرَ نُورُهُ. .
وَتِلْكَ التَّرْجَمَةُ إِلَى الإِنْجِلِيزِيَّةِ ،
وَما يَتْبَعُها مِنْ لُغاتٍ أُخْرَى - بِإِذْنِ اللَّهِ -
هَدَفٌ سامٍ تَهْدِفُ إِلَيْهِ دارُ « سبيل الله » ؛
لأَنَّهُ كَفانا حَدِيثًا مَعَ أَنْفُسِنا وَلأَنْفُسِنا! . .

لَقَدْ آنَ الأَوانُ أَنْ نُقَدِّمَ إِسْلامَنا إِلَى الآخَرِ

فِى عَصْرٍ يَتَّهِمُ فِيهِ ذٰلِكَ الآخَرُ الإِسْلامَ

بِاتِّهاماتٍ شَتَّى هُوَ مِنْها بَراءٌ!..

وَغَدا واجِبًا عَلَى كُلِّ غَيُورٍ عَلَى دِينِهِ أَنْ يُقَدِّمَ

ما فِى مُكْنَتِهِ : - خِدْمَةً لِهٰذا الدِّينِ ، وذَوْدًا عَنْ حِياضِهِ ..

وَإِنْ لَمْ نَفْعَلْ فَقَدْ قَصَّرْنا فِى حَقِّ دِينِنا ..

وَفِى حَقِّ نَبِيِّنا : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ..

وَلَنْ نُعْفَىٰ مِنَ الْمَسْئُولِيَّةِ فِى الدُّنْيا ،

- وَقَدْ هَيَّأَ اللَّهُ لَنا الأَسْبابَ - وَلا فِى الآخِرَةِ حِينَ يَقُولُ:

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (سورة الصَّافّات).

وَهٰذا الْمَوْضُوعُ : «الْكَمالاتُ الإِنْسانِيَّةُ»

لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَقْصُودٌ لِذاتِهِ..

كَما أَنَّ تَرْجَمَتَهُ إِلَى اللُّغَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ،

وَهِىَ لُغَةٌ عالَمِيَّةٌ، مَقْصُودَةٌ - أَيْضًا - لِذاتِها..

إِذْ لا بُدَّ أَنْ نُخاطِبَ الآخَرَ بِلُغَتِهِ ،

حَتَّى لا يُقِيمَ عَلَيْنا الْحُجَّةَ غَدًا !..

وَأَنْ يَتَعَرَّفَ هٰذا الآخَرُ عَلَى وُفُورِ عَقْلِ رَسُولِ اللَّهِ

- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَبْلَ الرِّسالَةِ ، وَبَعْدَها ! . .

وَعَلَى بَلاغَتِهِ، وَكَمالاتِهِ الْخُلُقِيَّةِ . .

وَأَنَّ أَخْلاقَهُ خارِقَةٌ لِلْعادَةِ ! . .

وَعَلَى هَيْبَتِهِ الْمَكْسُوَّةِ بِتَواضُعِهِ ! . .

وَعَلَى عَفْوِهِ وَتَسامُحِهِ

فِى ظِلِّ عالَمٍ - الآنَ - لا يَعْفُو وَلا يَتَسامَحُ ! . .

وَعَلَى حَيائِهِ . . فِى ظِلِّ عَصْرٍ ضاعَ فِيهِ الْحَياءُ ! . .

وَعَلَى جُودِهِ وَكَرَمِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

لِيَحُثَّ الْبَشَرِيَّةَ عَلَى الْجُودِ والْكَرَمِ . .

فِى ظِلِّ عَصْرٍ ارْتَفَعَ فِيهِ مُعَدَّلُ الْفَقْرِ ،

وَتَنامَتْ دَواعِى الْحاجَةِ الضَّرُورِيَّةِ لَدَى النّاسِ ! . .

وَعَلَى شَفَقَتِهِ وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

فِى ظِلِّ الْقَسْوَةِ والْغِلْظَةِ الَّتِى يَعِيشُها الْعالَمُ

الَّذِى يَشْهَدُ أَسْوَأَ مَرْحَلَةٍ يَسْتَبِدُّ فِيها الْقَوِىُّ بِالضَّعِيفِ ! . .

وَعَلَى الصِّدْقِ والأَمانَةِ والْعِفَّةِ . .

فِى ظِلِّ عَصْرٍ أَصْبَحَ الْكَذِبُ فِيهِ لُغَةً عالَمِيَّةً ،

وَحَلَّتْ الْخِيانَةُ مَحَلَّ الأَمانَةِ ، والْفُحْشُ مَكانَ الْعِفَّةِ ! . .

وَعَلى الْوَفاءِ وَرِعايَةِ الْعَهْدِ . .

فِى ظِلِّ عالَمٍ كَثُرَ فِيهِ الْغَدْرُ ، وَلَمْ تَعُدْ تُحْتَرَمُ فِيهِ

عُهُودٌ إِقْلِيمِيَّةٌ وَلا مَواثِيقُ دَوْلِيَّةٌ ! . .

وَعَلَى الْعِبادَةِ بِمَعْناها الشّامِلِ الْواسِعِ . .

فِى ظِلِّ تَخَبُّطٍ فِى فَهْمِ الْفِكْرِ الإِسْلامِيِّ

مِمَّنْ لا يَفْقَهُونَ الدِّينَ ! . .

وَعَلَى الزُّهْدِ والصَّبْرِ والْمُصابَرَةِ . . فِى وَسَطِ أُناسٍ

أَعْمَتْهُمُ الدُّنْيا ؛ فَلَمْ يَرَوْا سِواها ، وَلَمْ يَعْمَلُوا لِغَيْرِها ! . .

لا بُدَّ أَنْ يَتَعَرَّفَ الْعالَمُ عَلَى قِيمَةِ «الْعَدْلِ»

لَدَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

فِى دُنْيا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا ! . .

وَعَلَىٰ شَجاعَتِهِ وَرُجُولَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِى عَصْرٍ

شاعَ فِيهِ الْخَوَرُ والْجُبْنُ ، وَتَدَنَّتْ فِيهِ قِيَمُ الرُّجُولَةِ ! . .

* * *

وَدارُ «سبيل الله» إِذْ تَشْرُفُ بِتَقْدِيمِ هٰذا الْقُطْفِ ،
لِتُدْنِيَهُ مِنْ فِكْرِ الآخَرِ -
بِتَرْجَمَتِهِ إِلَى لُغَةٍ عالَمِيَّةٍ حَيَّةٍ هِيَ اللُّغَةُ الإِنْجِلِيزِيَّةُ،
مُؤَمِّلَةً تَرْجَمَتَهُ إِلَى لُغاتٍ عالَمِيَّةٍ حَيَّةٍ أُخْرَى -
تَدْعُو كُلَّ صاحِبِ فِكْرٍ إِلَى أَنْ يَنْهَجَ هذا السَّبِيلَ ،
وَأَنْ يَنْشُرَهُ بَيْنَ الْعالَمِينَ ؛ حَتَّى تَبْرَأَ ساحَتُنا
أَمامَ أَحْكَمِ الْحاكِمِينَ ، وَنُنَفِّذَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ
وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾

(سورة الأحزاب).

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.
وَكَتَبَهُ
راجِي عَفْوَ رَبِّهِ وَشَفاعَةَ نَبِيِّهِ :
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

د/ مُحَمَّد مُتَوَلِّي مَنْصُور
جامعة الأزهر
« أُسرة سبيل الله »

# ﴿ الْمُقَدِّمَةُ ﴾

أَتَقَدَّمُ لِلَّهِ - تبارك وتعالىٰ - بِهٰذا الْعَمَلِ
راجِيَةً عَفْوَهُ وَمَغْفِرَتَهُ .
إِنْ كُنْتُ قَدْ قَصَّرْتُ أَوْ أَخْطَأْتُ أَوْ تَجاوَزْتُ ،
حِينَ فَكَّرْتُ فِي تَلْخِيصِ جُزْءٍ
مِنْ كِتابِ الإمامِ الْجَلِيلِ : مُحَمَّد أَبُو زَهْرَة
- رَحِمَهُ اللَّهُ رَحْمَةً واسِعَةً ، وَأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنّاتِهِ -
بِاسْمِ «خاتَمُ النَّبِيِّينَ» : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
الْمُجَلَّدُ الأَوَّلُ مِنْ ص (١٥٩ - ٢٤٠).
وَقَدْ اخْتَصَصْتُ هٰذا الْجُزْءَ بِالتَّلْخِيصِ والْعَرْضِ ؛
لِأَنَّ الْمُؤَلِّفَ قَدْ تَحَدَّثَ فِيهِ
عَنْ صِفاتِ الرَّسُولِ الإِنْسانِيَّةِ ، وَصِفاتِهِ الْخُلُقِيَّةِ ؛
لِيَكُونَ صُورَةً قَرِيبَةً مِنْ قُلُوبِ الشَّبابِ ،
يَتَعَرَّفُونَ عَلَى نَبِيِّهِمْ وَحَبِيبِهِمْ وَشَفِيعِهِمْ ،
وَتَكُونَ صِفاتُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَمامَنا : الْقُدْوَةَ
والْأُسْوَةَ الْحَسَنَةَ لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللَّهَ والْيَوْمَ الآخِرَ.

وَصَدَقَ اللَّهُ - تبارَك وتَعالَى - الَّذِى وَصَفَ رَسُولَ اللَّهِ

- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِقَوْلِهِ فِى الآيَةِ الْكَرِيمَةِ :

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ (سورة القلم) ،

وَوَصَفَهُ - تبارك وتَعالَى - أَيْضًا - بِقَوْلِهِ :

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . . . ۝٥٢﴾ (سورة الشورى) ،

وَقَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :

« إِنَّما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخْلاقِ » .

وَمَعْذِرَةً ، يا رَسُولَ اللَّهِ . .

لَقَدْ شَرُفْتُ بِهٰذا الْعَمَلِ الَّذِى أَتَقَدَّمُ بِهِ

قُرْبَةً لِلَّهِ - تبارَك وَتَعالَىٰ - راجِيَةً رِضْوانَهُ . .

وَما كانَ لِىَ أَنْ أَتَقَدَّمَ لِشَرَفِ الْكِتابَةِ عَنْكَ ،

إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لِى . .

فَها أَنا ذا أَسْتَخِيرُ رَبِّى أَنْ أَفْعَلَ ،

لَعَلَّهُ يُوَفِّقُنِى إِلَى نَيْلِ هٰذا الشَّرَفِ .

* * *

وَقَدْ لَخَّصْتُ الْمَوْضُوعَ بِحِرْصٍ

مَنِ اسْتَخْدمَ الْكَلِماتِ نَفْسَها الَّتِى تناوَلَها الْمُؤَلِّفُ . .

وَلٰكِنَّنِى أَضَفْتُ إِلَيْهِ الْقَلِيلَ مِنْ نَبْعِ الْحُبِّ

الَّذِى يَحْمِلُهُ قَلْبِى لِرَحْمَةِ اللَّهِ لِلْعالَمِينَ ، سَيِّدِى وَحَبِيبِى :

رَسُولِ اللَّه : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

لِذٰلِكَ أُهْدِى هٰذا الْكُتَيِّبَ

إِلَى كُلِّ مَنْ شَرَّفَهُ اللَّهُ بِالإِيمانِ والإِسْلامِ ،

خاصَّةً شَبابَ الْمُسْلِمِينَ ،

عَسَى أَنْ يَقْتَدُوا بِرَسُولِهِمُ الْكَرِيمِ ،

طاعَةً لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - الَّذِى قالَ :

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾

(سورةُ الأحْزابِ) .

د/ كَوْثَر الأَبْجِى

# ﴿ تَمْهِيدٌ ﴾

## اَلْكَمالاتُ الْإِنْسانِيَّةُ والْخُلُقِيَّةُ فِى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قَسَّمْتُ أَوْصافَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قِسْمَيْنِ:

**أَحَدُهُما** : الْفِطْرَةُ الإِنْسانِيَّةُ . .

وَهِى كَمالُ الْفِطْرَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ؛
مِثْلُ: الْجُودِ، والصَّبْرِ، والْفَصاحَةِ،
والتَّأنِّى ، والرِّفْقِ، وَقَوْلِ الْحَقِّ - مِنْ غَيْرِ عُنْفٍ -
وَسائِرِ أَوْصافِهِ الْجِسْمِيَّةِ . .

**وثانيهما** : ما اكْتَسَبَهُ بِمُقْتَضَى التَّعالِيمِ الشَّرْعِيَّةِ . .

وَمِنْها: التَّواضُعُ، والحِلْمُ، والصَّبْرُ،
والشُّكْرُ، وَحُسْنُ الْمُعامَلَةِ.

وَهٰذِهِ الصِّفاتُ الْمُكْتَسَبَةُ - بِحُكْمِ الشَّرْعِ -
مِمّا تَلْتَقِى فِيهِ الْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ مَعَ الْوَحْىِ،
وَلِتَهْيِئَةِ اللَّهِ - تبارك وتعالىٰ - لَهُ قَبْلَ الرِّسالَةِ ،
لِتُصْنَعَ - مِنْ خُلُقِهِ - كَمالاتٌ إِنْسانِيَّةٌ وَخُلُقِيَّةٌ
لَمْ تَتَوَفَّرْ لِغَيْرِهِ مِنْ بَنِى الْبَشَرِ ! . .
وَيتَناوَلُ الْكاتِبُ كُلًّا مِنْ هٰذِهِ الْكَمالاتِ كَما يَلِى:

# الْكمالاتُ الإنْسانِيَّةُ

## أَوَّلًا - وُفُورُ عَقْلِهِ ﷺ :

لَمْ يَتَوافَرِ الْعَقْلُ فِى إنْسانٍ كَما تَوافَرَ
فِى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !..
وَلَوْ لَمْ يَنْزِلْ عليْهِ الْوَحْى وَيُخاطَبْ مِنَ السَّماءِ ،
لَكانَ عَقْلُهُ - وَحْدَهُ - كافِيًا لِأَنْ يُنْشِئَ دَوْلَةً ،
وَيُقِيمَ مُجْتَمَعًا طَيِّبًا !..
وَلٰكِنَّ اللَّهَ - تبارَك وَتَعالىٰ - أَتَمَّ عَلَيْهِ نِعْمَتَهُ ،
فَجَعَلَهُ نَبِيًّا مُرْسَلًا ..
فاجْتَمَعَ لَهُ الْكَسْبُ الذَّاتِىُّ بِالإدْراكِ
بِالْفِطْرَةِ الإنْسانِيَّةِ الْعالِيَةِ الْمُكْتَمِلَةِ بِالتَّكْوينِ الإنْسانِىِّ ،
والرِّسالَةِ الإلٰهِيَّةِ الْهادِيَةِ الْمُرْشِدَةِ !..
وَمُنْذُ نَشَأَ وَكانَ غُلامًا ، والْعَقْلُ يَزِينُهُ
فِى بَيْتِ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَفِى بَيْتِ عَمِّهِ أبِى طالِبٍ ؛
فَما كانَ يُزاحِمُ الْغِلْمانَ عَلَى طَعامٍ ، وكان يَكْتَفِى بِالْقَلِيلِ !..
حَتَّى إذا بَلَغَ عُمْرَ الِاكْتِساب ،

عَمِلَ عَلَى رَعْيِ الْغَنَم، لِيَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ !..
ثُمَّ أَلَحَّ عَلَى عَمِّهِ أَنْ يَأْخُذَهُ مَعَهُ إِلَى الشّام
فِى قافِلَةِ تِجارَةِ قُرَيْشٍ؛ لِيَتَعَلَّمَ إِبْرامَ الصَّفَقاتِ والتِّجارَةَ
وَيَعْرِفَ «الأَسْواقَ» وَهُوَ فِى الثّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ.
وَكانَ يَحْضُرُ مُجْتَمَعاتِ قُرَيْشٍ ..
وَحَضَرَ حِلْفَ الْفُضُولِ لِنُصْرَةِ الْحَقِّ ..
حيثُ نَفَرَ مِنْ عاداتِ الْجاهِلِيَّةِ الَّتِى كانَتْ
تُحَلِّلُ وَتُحَرِّمُ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ وَلا حَقائِقَ !..
فَلَمْ يَسْجُدْ لِصَنَمٍ قَطُّ فِى حَياتِهِ،
وَلَمْ يَحْلِفْ أَوْ يَسْتَحْلِفْ بِالْأَصْنامِ قَطُّ!..
وَلَقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ كُلُّها كَمالَ عَقْلِهِ،
فَرَضِيَتْ بِحُكْمِهِ، عِنْدَما اخْتَلَفُوا وَكادُوا يَتَقاتَلُونَ
عَلَى حَمْلِ الْحَجَرِ الأَسْوَدِ، وَوَضْعِهِ فِى مَوْضِعِهِ !..
فَلَمّا فَصَلَ بَيْنَ النّاسِ بِالْحَقِّ رَضُوا بِحُكْمِهِ؛
لِأَنَّهُ حَكَّمَ الْعَقْلَ والْحَقَّ، وَأَشْرَكَهُمْ جَمِيعًا
فِى حَمْلِهِ، مِنْ غَيْرِ خُصُومَةٍ وَلا تَفاضُلٍ !..

كَما أَنَّهُ لَمْ يَخُضْ فِى الْعَصَبِيَّةِ الْجاهِلِيَّةِ ،

فَلَمْ يَنْطِقْ بِها ، وَلَمْ يُشارِكْ فِى حَرْبِها ! . .

وَكانَ يُحِبُّ السَّلامَ والْوِئامَ، وَهُوَ قَدْ كَبَحَ جِماحَ هَواهُ

- طَوالَ حَياتِهِ - فَلَمْ يَفْعَلْ ما يَفْعَلُهُ الْغِلْمانُ وَهُوَ غُلامٌ ،

وَلا ما يَفْعَلُهُ الشَّبابُ وَهُوَ شابٌّ ،

وَلا بَعْدَ أَنْ صارَ رَجُلًا ! . .

فَكانَ الْقَوِىَّ الَّذِى يُسَيْطِرُ عَلَى أَهْوائِهِ ! . .

وَقَدْ ظَهَرَتْ مَظاهِرُ عَقْلِهِ - بَعْدَ الْبَعْثَةِ -

فِى سِياسَةِ الرَّعِيَّةِ . .

فَقَدْ كانَ اللَّهُ يُوحِى إِلَيْهِ بِالأَحْكامِ الشَّرْعِيَّةِ ،

وَيَتْرُكُ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُنَفِّذُ الْحَقَّ

بِالْمَسْلَكِ الَّذِى يَخْتارُهُ بِما يَجِبُ مِنَ الرِّفْقِ ،

مَعَ الْأَخْذِ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَحِمايَةِ الْحَقِّ مِنَ الْباطِلِ.

**ثانيًا - بلاغَتُهُ ﷺ :**

كانَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قُرَشِيًّا نَشَأَ ،
فِى قُرَيْشٍ، وَفِيها أَفْصَحُ اللَّهَجاتِ الْعَرَبِيَّةِ . .
وَكانَ يَحْضُرُ أَسْواقَ مَكَّةَ فِى مَوْسِمِ الْحَجِّ ،
وَيَتَذَوَّقُ ما يُنْشَدُ فِيها مِنْ شِعْرٍ . .
فَجَمَعَ فِى بَيانِهِ بَيْنَ لُغَةِ الْعَقْلِ والْحَضارَةِ
فِى مَكَّةَ ، وَسَذاجَةِ الْبَداوَةِ مَعَ حَلاوَةِ اللَّفْظِ
وَسُهُولَةِ لَهْجَةِ أَفْصَحِ أَهْلِ الْبادِيَةِ ! . .
كانَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَفْصَحَ النَّاسِ مَنْطِقًا ،
يَنْطِقُ بِالْحِكْمَةِ وَفَصْلِ الْخِطابِ . .
كانَ مَنْطِقُهُ يَجْمَعُ بَيْنَ الْإِيجازِ والْوُضُوحِ :
أَلْفاظُهُ قَلِيلَةٌ ، وَمَعانِيها كَثِيرَةٌ ، مِنْ غَيْرِ تَطْوِيلٍ وَلا تَعْقِيدٍ ! . .
يَجْمَعُ بَيْنَ السُّهُولَةِ وَجَمالِ الْأَلْفاظِ بِغَيْرِ كُلْفَةٍ ! . .
وَلا يَحْتَجُّ فِى كَلامِهِ إِلَّا بِالصِّدْقِ . .
وَلا يَطْلُبُ إِلَّا الْحَقَّ . .
وَلا يَسْتَعْمِلُ الْمُوارَبَةَ . . وَلا يَهْمِزُ . . وَلا يَلْمِزُ . .

لَمْ يَسْمَعِ النّاسُ كَلامًا قَطُّ أَتَمَّ نَفْعًا ،
وَلا أَصْدَقَ لَفْظًا، وَلا أَعْدَلَ وَزْنًا ،
وَلا أَجْمَلَ مَذْهَبًا ، وَلا أَكْرَمَ مَطْلَبًا ،
وَلا أَحْسَنَ مَوْقِعًا، ولا أَسْهَلَ مَخْرَجًا،
وَلا أَفْصَحَ فِى مَعْناهُ، وَلا أَبْيَنَ فِى فَحْواهُ
مِنْ كَلامِهِ : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . .

قالَتِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ
- رضي الله عنها وأرضاها -
فِى وَصْفِ كَلامِهِ :
( كانَ يَتَكَلَّمُ بِكَلامٍ بَيِّنٍ فَصْلٍ
يَحْفَظُهُ مَنْ جَلَسَ إِلَيْهِ ) .
فَكانَ كَلامُهُ بِأَناةٍ . .
غَيْرَ مُنْدَفِعٍ فِى الْقَوْلِ،
وَلا مُتابِعٍ لَهُ فِى اسْتِعْجالٍ ! . .

حَتَّى إنَّ عائِشَةَ - رضي الله عنها وأرضاها - تَرْوِى أَنَّ حَدِيثَهُ :
لَوْ عَدَّ السّامِعُ حُرُوفَهُ عَدًّا لأَحْصاها ! . .

وَذٰلِكَ هُوَ أَفْصَحُ النُّطْقِ وَأَبْلَغُ الإِلْقاءِ ؛
حَيْثُ يَجْعَلُ السّامِعَ يَتَذَوَّقُ جَمالَ الأَلْفاظِ ،
وَيَتَأَمَّلُ الْمَعانِيَ ، وَيُتابِعُ الأَفْكارَ
مِنْ غَيْرِ عَنَتٍ وَلا مَلَلٍ ! . .
كانَ مَنْطِقُهُ خالِيًا مِنَ الْفَأْفَأَةِ والتَّمْتَمَةِ
وَكُلِّ عُيُوبِ الْكَلامِ ،
فِى صَوْتٍ هادِئٍ عَمِيقٍ يُجَمِّلُهُ الصِّدْقُ ،
وَيَدْخُلُ مَداخِلَ النَّفْسِ نَغَماتُ صَوْتِهِ الْهادِئَةُ الْقَوِيَّةُ ،
يُزَيِّنُها جَمالُ الصَّوْتِ وَجَهارَتُهُ فِى غَيْرِ ضَجِيجٍ أَوْ صَخَبٍ . .
لا يَتَكَلَّمُ فِى غَيْرِ حاجَةٍ . .
طَوِيلُ السُّكُوتِ . . يَتَكَلَّمُ بِجَوامِعِ الْكَلِمِ . .
لا يَذُمُّ أَحَدًا وَلا شَيْئًا مُطْلَقًا ! . .
تَمَيَّزَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
بِبَلاغَتِهِ ، وَفَصاحَةِ لَفْظِهِ ،
وَجَمالِ نُطْقِهِ الَّذِى كانَ مُتَناسِقَ الأَلْفاظِ ،
يَفْهَمُهُ الْعامَّةُ والْخاصَّةُ وَكُلُّ إِنْسانٍ ، مَهْما كانَ !.

فِى كَلامِهِ الْحِكْمَةُ وَحُسْنُ الْمَأْخَذِ،
والْجَمْعُ بَيْنَ أَطْرافِ الْكَلامِ فِى لِينٍ وَيُسْرٍ !..
فَلا لَفْظٌ جافٌّ ، وَلاَ مُسْتَخْفٍ !..

وَلا يَتَخَيَّرُ غَرِيبَ الْكَلامِ.. وَلا يَخْتارُ لَفْظًا لِحَلاوتِهِ ،
بَلْ هِىَ السَّلِيقَةُ والْفِطْرَةُ فِى رِفْقٍ !..

عَلِمَ أَلْسِنَةَ الْعَرَبِ وَلَهَجاتِهِمْ مِنْ إقامَتِهِ بِمَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ
الَّتِى كانَ يَلْتَقِى فِيها بِقَبائِلِ الْعَرَبِ فِى مَوْسِمِ الْحَجِّ..
فَكانَ يَحْرِصُ عَلَى تَعَرُّفِها وَتَحْصِيلِ
كُلِّ ما يَسْمَعُ، وَيَحْفَظُ كُلَّ ما يَجْرِى..
وَذَكَرَ أَنَّهُ كانَ يَعْرِفُ أَلْفاظًا كَثِيرَةً
فارِسِيَّةً وَرُومانِيَّةً.. وَغَيْرَها..

وَكانَ يُخاطِبُ كُلَّ أُمَّةٍ بِلِسانِها، وَيُحاوِرُها بِلُغَتِها..
وَقَدْ كانَ يُعاهِدُ الْقَبائِلَ وَيَعْقِدُ الْهُدْناتِ،
فَبَلَغَتْ لُغَتُهُ - مِنْ إِحْكامِ الْمَواثِيقِ
وَدِقَّةِ الشُّرُوطِ - مَرْتَبَةً لا يُقاسُ عَلَيْها وَلا تُحاكَىٰ،
وَسبَقَ فِيها سَبْقًا لا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ!..

ثُمَّ إِنَّ أَحادِيثَهُ الْكَثِيرَةَ أَعْظَمُ شاهِدٍ عَلَى ذٰلِكَ..
وَقَدْ جَمَعَ فِيها ما لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْها أَحَدٌ..

**وَمِنْ أَمْثِلَتِها :**

« لا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ » . .

« السَّعِيدُ: مَنْ وُعِظ بِغَيْرِهِ » . .

« ذُو الْوَجْهَيْنِ: لا يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا » . .

« اَلْمَرْءُ : مَعَ مَنْ أَحَبَّ »

« خَيْرُ الأُمُورِ: أَوْسَطُها » . .

« اَلْمُسْتَشارُ: مُؤْتَمَنٌ » . .

هَكَذا كانَتْ فَصاحَةُ الْكَلامِ النَّبَوِيِّ والْبَلاغَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ

بِما ساقَ مِنْ عِباراتٍ جامِعَةٍ . .

أَلْفاظُهُ يَنْبَثِقُ مِنْها النُّورُ ،

وَتُضْبَطُ بِها حَقائِقُ الوُجُودِ ! . .

وَيُمْكِنُ جَمْعُ سِماتِ وَخَصائِصِ أَحادِيثِهِ

- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِما يَلِى :

١ـ لَفْظُهُ سَهْلٌ واضِحٌ مُتَناسِقٌ .

مَعَ الإِيجازِ وَإِحْكامِ الْمَعْنَى

والاتِّجاهُ إِلَىٰ مَقْصِدِ الْقَوْلِ .

٢ - لا تَعْلُو بَلاغَتُهُ عَلَى الْعُقُولِ الْفِطْرِيَّةِ . .
فَهِى تُدْرِكُها بِيُسْرٍ ، مَعَ قُوَّةِ الْمَعْنَى فِى النُّفُوسِ . .
وَيَتَعَلَّمُ مِنْهُ الْخاصَّةُ ما لَمْ يَتَعَلَّمُوا ! . .
تَعْبِيراتُهُ جَدِيدَةٌ فِى الْعَرَبِيَّةِ، لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْها قائِلٌ ! . .

٣ـ أُوتِىَ جَوامِعَ الْكَلِمِ :
فِيهِ الْحِكْمَةُ :
أَلْفاظُهُ قَلِيلَةٌ، وَمَعانِيها جَدِيدَةٌ ! . .

٤ـ يُخاطِبُ الْعَقْلَ والْوِجْدانَ ،
مِنْ غَيْرِ اسْتِكْراهٍ لِلأَلْفاظِ أَوْ تَكَلُّفٍ ! . .
وَخِطابُهُ فِيهِ إِرْشادٌ وَتَوْجِيهٌ ! .

٥ - كَلامُهُ خالٍ مِنَ الصِّناعَةِ الْبَدِيعِيَّةِ ؛
أَىْ: مِنْ غَيْرِ سَجْعٍ مَقْصُودٍ وَبِدُونِ تَكَلُّفٍ . .
فِى كَلامِهِ ثَرْوَةٌ مِنَ الْمَعانِى والنَّسَقِ الْمُحْكَمِ،
لا يَنْطِقُ إِلَّا فَصْلًا ! . .
فِقْهُهُ عَمِيقٌ يُدْرِكُ مَغْزاهُ الْفُقَهاءُ ! .

٦ـ كَلامُهُ مُرْسَلٌ سَهْلٌ يُدْرِكُهُ السَّمْعُ،
مِنْ غَيْرِ إِسْرافٍ فِى اللَّفْظِ، وَلا نَقْصٍ فِى الأَداءِ؛
وَلٰكِنْ وَفاءٌ وَكَمالٌ فِى غَيْرِ حَشْوٍ أَوْ لَغْوٍ! . .

# اَلْكَمالاتُ الْخُلُقِيَّةُ

## أَوَّلًا - أَخْلاقُهُ خارِقَةٌ لِلْعادَةِ :

يَعْتَبِرُ الْكُتّابُ أَنَّ أَخْلاقَ مُحَمَّدٍ

- صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ أَعْظَمِ خَوارِقِهِ ؛

فَهُوَ أَعْلَى مِنَ الْمَلائِكَةِ بِمُقْتَضَى كَوْنِهِمْ :

﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ

وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

( سورة التحريم )

فَتَتَجَلَّىٰ فِيهِ الإنْسانِيَّةُ الْكامِلَةُ

بِما فِي ذٰلِكَ مِنْ مَطالِبِ الْجِسْمِ وَتَجَرُّدِ الرُّوحِ ،

وَطَبِيعَةٍ رُوحانِيَّةٍ إرادِيَّةٍ ؛

فَهُوَ لَيْسَ حَصُورًا

مِثْلَ عِيسَى - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

وَلٰكِنَّهُ عَفِيفٌ ، فَفَضِيلَتُهُ :

كَفُّ الشَّرِّ والْعِفَّةُ .

* وَقَدْ وَصَفَهُ هِنْدُ بْنُ أَبِى هالَةَ : رَبِيبُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِما يَلِى :

١ـ أَنَّهُ يَخْزُنُ لِسانَهُ ،

أىْ: لا يَنْطِقُ إِلَّا فِيما يَعْنِى الَّذِينَ يُخاطِبُهُمْ وَيُفِيدُهُمْ،

وَلا يَتَكَلَّمُ فِى مِراءٍ، وَلا يَذُمُّ أَحَدًا !..

وَلا يَكْتَرِثُ فِى قَوْلٍ ،

وَلا يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ ..

فَإِذا تَكَلَّمَ كانَ فِى كَلامِهِ

الْحُكْمُ وَفَصْلُ الْخِطابِ !..

٢ـ أَنَّهُ يَتَأَلَّفُ مَعَ أَصْحابِهِ :

يُكْرِمُ كَرِيمَهُمْ، وَيَرْفَعُ خَسِيسَةَ صَغِيرِهِمْ..

يُوَزِّعُ مَحَبَّتَهُ بَيْنَهُمْ، وَيَفْتَحُ قَلْبَهُ لَهُمْ !..

إِذا رَأَى أَمْرًا حَسَنًا أَعْلَنَ حُسْنَهُ..

وَإِذا رَأَى قَبِيحًا نَبَّهَ إِلَيْهِ فِى رِفْقٍ !..

لا يَنْفِرُ وَلا يُغْلِظُ.. وَيُقَرِّبُ وَلا يُبْعِدُ..

لا يَسْكُتُ عَنْ باطِلٍ.. أَلِيفٌ مَأْلُوفٌ !..

٣ـ مُتواضِعٌ تَواضُعَ كَرِيمٍ بِلا ضَعَةٍ وَلا ذِلَّةٍ ! . .
إذا دَخَلَ عَلَىٰ جماعَةٍ
جَلَسَ حَيْثُ يَنْتَهِى بِهِ الْمَجْلِسُ ! . .
لا يَمْزَحُ إلَّا قَليلًا ، وَلا يَخْلُو مِزاحُهُ مِنْ بيانٍ ! . .
يُسَوِّى بَيْنَ أَصْحابِهِ وَيُلِينُ لَهُمْ جانِبَهُ . .
وَيَغُضُّ الطَّرْفَ عَمّا لا يُرْضِيهِ وَيَكْتَفِى بالإشارَةِ . .
فَإِنْ لَمْ يَكُفَّ نَبَّهَ تَعْمِيمًا ،
حَتَّى يَكُونَ التَّوْبِيخُ فِيهِ مَعْنَى الْعُمُومِ ،
فَيَكُونُ أَبْلَغَ أَثَرًا ! . .

٤ـ بَعِيدٌ عَنِ الْغِلْظَةِ والْجَفْوَةِ، وَلَيْسَ بِعَيَّابٍ ،
وَلا يَتَتَبَّعُ الْعَوْراتِ ، وَلا صَخّابٍ، وَلا فَحّاشٍ بِالْقَوْلِ.

٥ـ لا يَذُمُّ مُطْلَقًا وَكانَ يَبْعُدُ عَنْ فُحْشِ الْقَوْلِ ،
لا يَتَكَلَّمُ إلَّا بِما يَرْجُو ثَوابَهُ وَما يَجْلِبُ الْخَيْرَ.

٦ـ يَلْتَزِمُ السُّكُوتَ قَبْلَ النُّطْقِ ،
وَسُكُوتُهُ كانَ حِلْمًا ، وَعَقْلًا، وَعَفْوًا ! . .

٧ـ لا يَغْضَبُ لِشَيْءٍ يَتَّصِلُ بِذاتِهِ ،
وَلا يَسْتَفِزُّهُ إلَّا إذا ٱنْتُهِكَتْ حُرُماتُ اللَّهِ ! . .

* وصَفَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ - رضِىَ اللَّهُ عنه - بِثَلاثٍ:

١ـ أَنَّهُ يُقْبِلُ بِنَفْسِهِ كُلِّها عَلَى مَنْ يَلْقاهُ ،

فَلا يَلْقَى أَحَدًا لِقاءً جانِبِيًّا ،

أَوْ يُكَلِّمُ أَحَدًا بِطَرَفِ لِسانٍ ! . .

٢ـ لَمْ يَكُنْ يُجِيبُ أَحَدًا بِفُحْشٍ ،

أَوْ بِخُرُوجٍ عَنْ جادَّةِ الْقَوْلِ ! . .

٣ـ أَنَّهُ لا يَصْخَبُ ، وَلا يُغاضِبُ ،

وَلا يُجادِلُ فِى الْأَسْواقِ.

وَكانَ مُتَواضِعًا أَبْلَغَ ما يَكُونُ التَّواضُعُ . .

إِذْ خَيَّرَهُ رَبُّهُ؛

فاخْتارَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا عَبْدًا ،

لا أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا . .

هٰذا هُوَ النَّبِىُّ الَّذِى بَعَثَهُ اللَّهُ :

رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ!!! . .

**ثانيًا - الْهَيْبَةُ :**

كانَتْ هَيْبَتُهُ أَشَدَّ ما تَكُونُ. .
وُصِفَ مَجْلِسُهُ بَيْنَ صَحابَتِهِ
بِما يَدُلُّ عَلَى عَظِيم مَهابَتِهِ وَقُوَّةِ وَقارِهِ . .
فَلا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ فِي الْقَوْلِ . .
وَإِنْ صَمَتَ صَمَتُوا . .
وَلٰكِنَّها هَيْبَةٌ مَعَ تَواضُعٍ كَرِيمٍ ، حَتَّى إِنَّهُ
كانَ يَنْزِلُ لِيَتَقَرَّبَ مِنْهُ مَنْ يُحَدِّثُهُ وَيُرِيدُ هِدايَتَهُ . .
وَلَقَدْ سَلَّطَ هذِهِ الْهَيْبَةَ عَلَىٰ زُعماءِ الشِّرْكِ ،
عِنْدَما رَأَى مِنْهُمُ ٱسْتِهْزاءً واسْتِعْلاءً ! . .
وَكانَ ﷺ يُخَفِّفُ مِنْ جَأْشِ مَنْ تَنالُهُ هَيْبَتُهُ بِقَوْلِهِ :
« هَوِّنْ عَلَيْكَ ؛ فَإِنِّي لَسْتُ بَمِلِكٍ . .
أَنا ٱبْنُ ٱمْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، كانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ » . .
لَقَدْ وَصَلَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى أَقْصَى دَرَجاتِ الْهَيْبَةِ ،
وَنَزَلَ مِنَ التَّواضُعِ إِلَىٰ دَرَجَةٍ كُلِّ ذِي حاجَةٍ . .
يَأْنَسُ بِهِ الضَّعِيفُ . . وَيَرْجُوهُ ذَوُو الْحاجَةِ . .
فَهُوَ يَمْتَلِكُ الْمَهابَةَ الْفِطْرِيَّةَ :
الْمُسْتَمَدَّةَ مِنَ الْعِلْمِ والْخُلُقِ والْفَضِيلَةِ ! . .

**ثالِثًا : الْعَفْوُ والتَّسامُحُ :**

هَيَّأَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَكُونَ هادِيًا إِلَىٰ الْحَقِّ ،
يُعِينُ الْكَلَّ، وَيُغِيثُ الضَّعِيفَ ،
وَيَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ ! . .
وَإِنْ كانَتِ السَّماحَةُ سِمَةَ الْأَنْبِياءِ عامَّةً ،
إِلَّا أَنَّ سَماحَةَ الرَّسُولِ ﷺ كانَتْ إِيجابِيَّةً ؛
فَهُوَ يَفْعَلُ الْخَيْرَ ، وَيَجْتَنِبُ الشَّرَّ
وَقَدْ سارَ عَلَىٰ سُنَّةِ الْعَفْوِ عَنِ الْإِساءَةِ ،
والْإِعْراضِ عَنِ الْجاهِلِينَ ،
عَمَلًا بِقَوْلِهِ - تبارك وتَعالَىٰ -:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾
(سورة الأعراف).

* تَقُولُ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ - رضِيَ اللَّهُ عنها وأرضاها -:

« كانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ . . »

يَأْخُذُ بِهِ وَيَتَّبِعُ مِنْهاجَهُ الَّذِى قالَ :

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾
(سورة فُصِّلت)

فَكانَ عَفُوًّا عَنْ هَفَواتِ النّاسِ ،

مُتَجاوِزًا عَنْ أَخْطائِهِمْ . .

والْعَفْوُ والسَّماحَةُ لا يَسْكُنانِ

إِلَّا قَلْبًا خالِيًا مِنَ الْأَحْقادِ . .

فَهُوَ يَعْمَلُ لِيَقُودَ إِلَىٰ الْحَقِّ ؛

فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ نَظَرُهُ إِلَىٰ الْأَمامِ ،

لا إِلَىٰ الْخَلْفِ . .

وَمَنْ يُصْبِحُ داعِيًا - بِرِسالَتِهِ - إِلَىٰ الْحَقِّ

يَكُونُ عامِلًا لِلْمُسْتَقْبَلِ ، لا يَشْغَلُهُ الْماضِى ! . .

أَدَّبَهُ رَبُّهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهُ . .

رَبَّاهُ عَلَى الصَّفْحِ الْجَمِيلِ ؛

لِيَكُونَ قَلْبُهُ مُهَيَّأً - دائِمًا -

لِحَمْلِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ الْحَقِّ ، مُتَفَرِّغًا لَها ؛

فَلا يَشْغَلُ نَفْسَهُ بِحِقْدٍ وَلا عَداوَةٍ . .

وَكانَ حَرِيصًا عَلَىٰ سَدِّ مَسامِّ الْأَحْقادِ

بِمَنْعِ النَّمِيمَةِ . .

قالَ لِأَصْحابِهِ:

« لا يُبَلِّغْنِى أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا . .
إِنِّى أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ،
وَأَنا سَلِيمُ الصَّدْرِ » . .

■ لَقَدْ كانَ لِعَفْوِهِ وَسَماحَتِهِ قِصَصٌ كَثِيرَةٌ؛ مِنْها :

* عَفْوُهُ عَنْ قُرَيْشٍ عِنْدَ فَتْحِ مَكَّةَ ! . .
وَعَفْوُهُ عَنْ أَهْلِ الطّائِفِ ، بَعْدَ أَنْ آذَوْهُ
وأَغْرَوْا سُفَهاءَهُمْ بِإِلْقاءِ الْحِجارةِ عَلَيْهِ ،
حَتَّىٰ تَفَجَّرَتِ الدِّماءُ مِنْ قَدَمِهِ ؛
فَجاءَهُ جِبْرِيلُ بِمَلَكِ الْجِبالِ
يَعْرِضُ عَلَيْهِ أَنْ يُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْجَبَلَيْنِ . .
فَأَبَىٰ وَقالَ قَوْلَتَهُ الشَّهِيرَةَ :

« اَللَّهُمَّ: اْغْفِرْ لِقَوْمِى ،
فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ . »

* وَعَنْ عائِشَةَ - رضى الله عنها وأرضاها - أَنَّها قالَتْ فِيهِ :

« . . لا يَجْزِى بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ؛
وَلكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ ».

## رابِعًا - الْحَياءُ :

كانَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
أَشَدَّ النَّاسِ حَياءً وَإِغْضاءً
أَوْ تَغافُلًا عَنِ الْعَوْراتِ . .

يَقُولُ الْقُرْآنُ الكريمُ:

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ
فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ . . . ﴿٥٣﴾﴾
(سورة الأحزاب) .

والْحَياءُ يَجْعَلُ صاحِبَهُ
لا يُفاجِئُ النَّاسَ بِما لا يَسُرُّهُمْ ! . .

بَلْ يَجِيءُ إِلَيْهِمْ مِنْ جانِبِ ما يَأْلَفُونَ ،
لا يَظْهَرُ مِنْهُ ما يُخالِفُ الْفَضِيلَةَ ؛
فَلا يُعْلِنُ رَذِيلَةً وَلا أَمْرًا
لا يَتَلَقّاهُ النّاسُ بِالْقَبُولِ:

وَمِنْ مَظاهِرِ حَيائِهِ ما يَلِي :

١ـ أَنَّهُ كانَ يَسْتَحِي أَنْ يَطْلُبَ مِنْ أَصْحابِهِ الْخُرُوجَ
بَعْدَما يَتَناوَلُونَ الطَّعامَ عِنْدَهُ،
وَهِيَ الْواقِعَةُ الَّتِي نَزَلَتْ بِها الآيَةُ
الثّالِثَةُ والْخَمْسُونَ مِنْ سُورَةِ الأَحْزابِ .

٢ـ عَدَمُ الْمُجابَهَةِ - مِنْ غَيْرِ ضَياعٍ لِلْحَقِّ -
بِنَهْيِ شَخْصٍ بِعَيْنِهِ يَفْعَلُ مَكْرُوهًا ؛
وَإِنَّما يَجْعَلُ النَّهْيَ عامًّا ،
ويَسْتَنْكِرُهُ بِشَكْلٍ شامِلٍ ؛
وَلا يُسَمِّي فاعِلَهُ ؛
حَتَّىٰ لا يُخْزِيَهُ أَمامَ الْكافَّةِ ! . .

٣ـ إِذا فَعَلَ شَخْصٌ ما يَنْدُرُ وُقُوعُهُ ،
فَلا يُجاهِرُ بِهِ صاحِبَهُ بِالنَّهْيِ ؛
بَلْ يَطْلُبُ مِنْ أَصْحابِهِ
أَنْ يُنَبِّهُوهُ إِلَى ذٰلِكَ رِفْقًا بِهِ ! . .

٤ـ إِذا لَقِيَ رَجُلًا :
فَلا يَتَّجِهُ إِلَى الْجانِبِ الْآخَرِ ،
حَتَّىٰ يَنْصَرِفَ هُوَ عَنْهُ ! . .
وَإِذا صافَحَ أَحَدًا :
فَلا يَنْزِعُ يَدَهُ حَتَّىٰ يَنْزِعَ هُوَ يَدَهُ ! . .

## خامِسًا - الْجُودُ والْكَرَمُ :

كانَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جَوادًا
يُعْطِى ما فِى يَدِهِ ، وَإِنْ كانَ فِى حاجَةٍ إِلَيْهِ ! . .
أَجْوَدَ ما يَكُونُ فِى رَمَضانَ . .
وَما كانَ يَرُدُّ حاجَةَ مُحْتاجٍ قَطُّ ،
حَتَّى بَلَغَ أَنَّهُ يُعْطِى الْمَوْجُودَ كُلَّهُ ؛
فَإِذا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ ما يَسُدُّ بِهِ حاجَةَ الْمُحْتاجِ :
سَدَّ حاجَتَهُ دَيْنًا ، اعْتِمادًا عَلَى اللَّهِ
- تَعالَىٰ - مَعَ اتِّخاذِ الْأَسْبابِ ؛
لِأَنَّهُ يُؤْثِرُ عَلَى نَفْسِهِ ،
وَمِنْ قَبِيلِ تَحَمُّلِ أَعْباءِ الْأُمَّةِ ! . .
فَكانَ يَقُولُ : « مَنْ تَرَكَ مالًا فَلِوَرَثَتِهِ . .
وَمَنْ تَرَكَ عِيالًا : فَإِلَيَّ ، وَعَلَيَّ . »
فَمَنْ لا يَسْتَطِيعُ إِعالَةَ نَفْسِهِ ، فَهُمْ عِيالُهُ . .
وَعَلَيْهِ تَحَمُّلُ أَعْبائِهِمْ ! . .
وَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ كانَ يَخْلَعُ ثِيابَهُ لِمَنْ يَطْلُبُها . .
وَكانَ يُوَزِّعُ الْغَنائِمَ ،
فَما يُبْقِى لِنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ إِلَّا ما يَكْفِيهِ ! . .

يَقُولُ أَنَسُ بْنُ مالِكٍ :

( كانَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لا يَدَّخِرُ شَيْئًا ) . .

وَكانَ يُوَزِّعُ الْغَنائِمَ ،

فَما يُبْقِى لِنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ إِلَّا ما يَكْفِيهِ ! . .

وَكانَ يَحُضُّ أَصْحابَهُ وَكافَّةَ الْمُسْلِمِينَ

عَلَى الْجُودِ والإِنْفاقِ، فَيَقُولُ :

« أَنْفِقْ بِلالٌ، وَلا تَخْشَ مِنْ ذِى الْعَرْشِ إِقْلالًا . »

وَقَوْلُه - أَيْضًا - : ( ما مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ إِلَّا وَمَلَكانِ ،

يَقُولُ أَحَدُهُما : « اَللَّهُمَّ : أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا » ،

وَيَقُولُ الْآخَرُ : « اَللَّهُمَّ : أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا » . )

وَجُودُهُ وَكَرَمُهُ لَيْسَ كُرْهًا فِى الْمالِ ،

بَلْ كانَ يَسْعَى لِلْكَسْبِ الْحَلالِ ؛

فَهُوَ تاجِرٌ يَكْسِبُ - مِنَ التِّجارَةِ - الْمالَ الْحَلالَ ،

وَيُحَقِّقُ الْكَسْبَ الطَّيِّبَ ؛

لِيُنْفِقَ مِنْهُ عَلَى الْمُحْتاجِينَ والضُّعَفاءِ . .

فَهُوَ جَوادٌ زاهِدٌ عامِلٌ .

## سادِسًا - الشَّفَقَةُ والرَّأْفَةُ والرَّحْمَةُ :

قالَ اللَّهُ - تبارَكَ وتَعالَىٰ -:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾

(سورة الأنبياء)

والرَّحْمَةُ تَكُونُ آثارُها عامَّةً عَلَى الْجَمِيعِ ،

أَمَّا الشَّفَقَةُ والرَّأْفَةُ فَتَكُونانِ فِى النَّواحِى الْخاصَّةِ . .

وَلَقَدْ كانَ الرَّسُولُ - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَجْمَعُها جَمِيعًا مَعًا ،

تَأْخُذُهُ الرَّأْفَةُ ما لَمْ تَتَعارَضْ مَعَ الرَّحْمَةِ بِالْكافَّةِ،

أَوْ مَعَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ .

وَكانَ يُعالِجُ النُّفُوسَ الشّارِدَةَ بِالرَّأْفَةِ . .

وَلا يُعاقِبُها . . وَإِنَّما يَسُوسُها ،

وَيَتَّجِهُ بِها إِلَى الْجادَّةِ مِنْ غَيْرِ عُنْفٍ . .

وَيُعالِجُ بالشَّفَقَةِ دُونَ غِلْظَةٍ أَوْ قَمْعٍ ،

وَهُوَ - فِى ذٰلِكَ -

يُعَلِّمُ الرّاعِىَ كَيْفَ يَسُوسُ الرَّعِيَّةَ

وَيَأْخُذُها إِلَى مَواطِنِ الْحَقِّ ،

حَتَّىٰ إِنَّ شَفَقَتَهُ تَعُمُّ فَتَكُونُ رَحْمَةً .

وَمِنْ مَظاهِرِها :

١ - كانَ يَبْكِى لِأَنِينِ عَمِّهِ الْعَبّاسِ
عِنْدَما أُسِرَ فِى غَزْوَةِ بَدْرٍ ! . .
فَكانَ يَتَأَلَّمُ لِأَلَمِ عَمِّهِ الْحَبِيبِ . .
وَمَعَ ذٰلِكَ فلَمْ يَفُكَّ أَسْرَهُ ؛
تَسْوِيَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ كافَّةِ الْأَسْرَى ! . .

٢ - ضاعَ مِنْ جارِيَةٍ ثَمَنُ دَقِيقٍ . . فَلَمّا رَآها تَبْكِى ،
وَقَصَّتْ عَلَيْهِ خَوْفَها مِنْ سَيِّدِها ،
دَفَعَ إِلَيْها ثَمَنَ الدَّقِيقِ .

فَبَكَتْ ثانِيَةً ، خَوْفًا مِنْ أَنْ يَضْرِبُوها لِتَأْخِيرِها . .
فَذَهَبَ مَعَها بِنَفْسِهِ يَطْلُبُ مِنْهُمُ الْعَفْوَ عَنْها . .

وَما كانَ مِنْهُمْ إِلّا أَنْ أَعْتَقُوها كَرامَةً لِمَجِيئِهِ عِنْدَهُمْ
- صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَطْلُبُ الْعَفْوَ عَنْها ! . .

٣ - التَّخْفِيفُ فِى الصَّلاةِ عِنْدَما يَسْمَعُ بُكاءَ طِفْلٍ . .
وَيَقُولُ - صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :

« اَللَّهُمَّ : مَنْ وَلِىَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِى شَيْئًا ، فَرَفَقَ بِهِمْ فارْفُقْ بِهِ . .
وَمَنْ وَلِىَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِى شَيْئًا ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ ، فَشُقَّ عَلَيْهِ » .

## سابِعًا - الصِّدْقُ والْأَمانَةُ والْعِفَّةُ :

كانَ صادِقًا بَيْنَ الصّادِقِينَ ؛
إِذْ عُرِفَ الْعَرَبُ بِالصِّدْقِ ،
وَلَمْ يَكُنِ الْكَذِبُ والنِّفاقُ مِنْ أَخْلاقِ كُبَرائِهِمْ . .
وَقَدْ قالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :
« آيَةُ الْمُنافِقِ ثَلاثٌ: إِذا حَدَّثَ كَذَبَ . .
وَإِذا وَعَدَ : أَخْلَفَ . . وَإِذا اؤْتُمِنَ : خانَ » .
كانَ الرَّسُولُ صادِقَ الْحِسِّ ،
صادِقَ النَّفْسِ ، صادِقًا فِي مَقاصِدِهِ وَغاياتِهِ . .
وَعِنْدَما سُئِلَ عَنِ الْمُؤْمِنِ : أَيَكُونُ كَذّابًا؟
قالَ : « لا يَكُونُ كَذّابًا » . .
فالإيمانُ والْكَذِبُ نَقِيضانِ ، لا يَجْتَمِعانِ.
أَمّا الأَمانَةُ فَحَسْبُهُ أَنَّ قُرَيْشًا
أَسْمَتْهُ « الأَمِينَ » قَبْلَ الْبَعْثَةِ ! . .
والأَمانَةُ والصِّدْقُ مُتَلازِمانِ، فَلا أَمانَةَ بِغَيْرِ صِدْقٍ ،
كَما أَنَّ الصِّدْقَ يَقْتَضِي كُلَّ الْفَضائِلِ.
أَمّا عِفَّتُهُ فَهِيَ صِيانَةٌ مِنَ اللَّهِ عَنِ اللَّهْوِ والشَّهَواتِ . .
وَكانَتْ لَهُ إِرادَةٌ قَوِيَّةٌ مُسَيْطِرَةٌ عازِفَةٌ عَنِ اللَّهْوِ! . .

## ثامِنًا - الْوَفاءُ وَرِعايَةُ الْعَهْدِ :

كانَ الرَّسُولُ - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
مِثالًا عَظِيمًا لِلْوَفاءِ :
وَفَّى حَقَّ الْعِشْرَةِ أَجْمَلَ وَفاءٍ ،
وَرَعاها حَقَّ رِعايَتِها بِالْوَصْلِ الدّائِم ؛
فالْوَفاءُ صِفَةٌ مِنْ صِفاتِهِ تَرْتَبِطُ بِخُلُقِهِ وَسَماحَتِهِ . .
وَمِنْ أَمْثِلَتِها :

١ - وَفاؤُهُ لِلسَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنها وأرضاها -
يَوَدُّ صَدِيقاتِها ، وَيَصِلُ صِلاتِها ، وَيَذْكُرُها بِالْخَيْرِ ،
وَيَوَدُّ أَبْناءَها ، وَيَفِيضُ عَلَيْهِمْ عَطْفًا وَكَرَمًا .

٢ - قِيامُهُ بِرِعايَةِ وَفْدِ النَّجاشِيِّ - بِنَفْسِهِ -
عِنْدَما حَضَرُوا ؛ مُكافَأَةً لَهُمْ ،
وَوَفاءً لِجَمِيلِهِمْ بِإِكْرامِ وَحِمايَةِ الْمُسْلِمِينَ .

٣ - كَرِيمُ وَفائِهِ - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
وَلُطْفُ مَوَدَّتِهِ ، لِأُخْتِهِ
مِنَ الرَّضاعَةِ : الشَّيْماءِ ،
وَكَذلِكَ إِكْرامُهُ لِأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَأَخِيهِ مِنَ الرَّضاعَةِ ! . .

٤ - الْوَفاءُ لِلْجارِيَةِ الَّتِى فَرِحَتْ بِوِلادَتِهِ ،
وَهِيَ جارِيَةُ عَمِّهِ أَبِى لَهَبٍ ،
وَقَدْ أَرْضَعَتِ النَّبِيَّ
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عِنْدَ وِلادَتِهِ . .
وَقَدْ أَعْتَقَها أَبُو لَهَبٍ
عِنْدَما بَشَّرَتْهُ بِمَوْلِدِ سَيِّدِ الْخَلْقِ ،
وَوَصَلَها - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَتَّى ماتَتْ ! . .

**تاسِعًا - الْعِبادَةُ :**

وَتَنْقَسِمُ إِلَىٰ : عِبادَتِهِ قَبْلَ الْبَعْثَةِ وَبَعْدَها - كَما يَلِى:

**عِبادَتُهُ قَبْلَ الْبَعْثَةِ:**

أَنْكَرَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
عِبادَةَ الْأَوْثانِ وَلَمْ يَعْتَرِفْ بِها،
فَما سَجَدَ لِصَنَمٍ قَطُّ ، وَما قَدَّسَهُ !..
وَإِذا ٱسْتَقْسَمَ أَحَدٌ بِها، رَدَّهُ،
وَذَكَرَ لَهُ أَنَّهُ يَكْرَهُ ذِكْرَها !..

وَقَدْ نَشَأَ عابِدًا مُنْذُ سِنِّ التَّمْيِيزِ، فَكانَ يَتَفَكَّرُ
فِى خَلْقِ اللَّهِ وَمَلَكُوتِهِ والسَّماواتِ والْأَرْضِ !..
وَلَمْ يَكُنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ السَّماءِ وَأَبْراجِها وَزِينَتِها؛
بَلْ كانَ يَنْظُرُ إِلَىٰ دِلالاتِها عَلَى الْخالِقِ،
وَيَتَعَرَّفُ مِنْها سِرَّ الدِّلالَةِ عَلَىٰ الْمُنْشِئِ؛
بَحْثًا عَنْهُ ، وَإِيمانًا بِهِ ، وَطَلَبًا لِرِضْوانِهِ !..
واتَّجَهَ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الْخالِقِ ،
عاكِفًا فِى صَوْمَعَتِهِ، مُتَفَكِّرًا فِى آلائِهِ وَنِعَمِهِ،
زاهِدًا فِى الِاخْتِلاطِ،
مِمّا كانَ يَرَى مِنْ إِفْكِ عِبادَةِ الْأَوْثانِ،

وَتَعاطِى الْخَمْرِ ، وَلَعِبِ الْمَيْسِرِ ،
وَظُهورِ الْخُصُوماتِ والشَّحْناءِ ! . .
لِذٰلِكَ عَزَفَ عَنْ مَجالِسِ سَمَرِ قُرَيْشٍ ؛
وَإِنْ كانَ يَحْضُرُ جِدَّها ،
مِثْلَ حِلْفِ الْفُضُولِ ! . .
وَما كانَ يَخْرُجُ مِن خَلْوَتِهِ
إِلَّا لِإِسْداءِ مَعْرُوفٍ ، أَوْ إِطْعامِ مِسْكِينٍ ،
أَوْ إِغاثَةِ مَلْهُوفٍ ، أَوْ لِإِكْرامِ ضَيْفٍ ؛
قاصِدًا بِذٰلِكَ وَجْهَ اللّٰهِ - تبارك وتعالىٰ - وَإِرْضاءً لَهُ . .
وَكُلَّما تَقَدَّمَتْ بِهِ السِّنُّ زادَتْ عُزْلَتُهُ
وَخَلْوَتُهُ لِلْعِبادَةِ ؛ فَكانَ يَمْكُثُ بِها شَهْرًا ! . .
وَلَمْ يَكُنْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الشَّرائِعِ السَّماوِيَّةِ السّابِقَةِ ،
حَيْثُ كانَ أُمِّيًّا : لا يَقْرَأُ وَلا يَكْتُبُ . .
وَلَمْ يَكُنْ عَلَى عِلْمٍ بِالتَّوْراةِ أَوِ الْإِنْجِيلِ . .
وَلٰكِنْ كانَتْ هُناكَ بَقايا مِنْ دِيانَةِ إِبْراهِيمَ - صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
فِى قَوْمِ مُحَمَّدٍ - صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَوارَثُوها ،
مِثْلُ الْحَجِّ الَّذِى كانَ الْعَرَبُ يَذْكُرُونَ اللّٰهَ
- تبارَكَ وتَعالَىٰ - فِيهِ كَثِيرًا فِى الْمَناسِكِ .

وَيَرْجَحُ أَنَّ عِبادَةَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
كانَتْ بِإِلْهامٍ مِنَ اللَّهِ بِغَيْرِ وَحْيٍ ،
فَقَدْ كانَ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
دائِمَ التَّأَمُّلِ فِي الْكَوْنِ ! . .
وَكانَ يَرَى الرُّؤْيا الصّادِقَةَ كَفَلَقِ الصُّبْحِ ،
وَهِيَ أَوَّلُ مَراتِبِ الْوَحْيِ ؛
وَبِذٰلِكَ صارَ رَبّانِيًّا
بِفِطْرَتِهِ الْمُسْتَقِيمَةِ وَقَلْبِهِ السَّلِيمِ! . .

**عِبادَتُهُ بَعْدَ الْبَعْثَةِ:**

كانَ قَوّامًا لِلَّهِ - تبارك وتعالى - يَطْلُبُ مَرْضاتَهُ ،
صَفَتْ نَفْسُهُ وَخَلُصَ قَلْبُهُ . . وَعَلِمَ أَنَّ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ
هِيَ الْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ والْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ ؛
فاخْتارَها وَسَلَكَ سَبِيلَها ! . .

يُرْوَى فِي الصَّحِيحَيْنِ : الْبُخارِيِّ وَمُسْلِمٍ
أَنَّ الرَّسُولَ قامَ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَماهُ، فَقِيلَ لَهُ:
(أَلَيْسَ اللَّهُ قَدْ غَفَرَ لَكَ
ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ؟)
قال: « أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟ »

قالَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عائِشَةُ - رَضِىَ اللَّهُ عنها وأرضاها - :

« كانَ عَمَلُهُ : دِيمَةً ! . .

أَيُّكُمْ يَسْتَطِيعُ ما كانَ الرَّسُولُ يَسْتَطِيعُهُ؟! »

(أَىْ: إِنَّهُ كانَ يُحِبُّ ٱسْتِدامَةَ الْعِبادَةِ والِانْقِطاعَ لَها). .

وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ كانَ يَدْعُو إِلَى التَّخْفِيفِ فِى الصَّلاةِ؛

أَىْ: أَنْ يُصَلُّوا بِصَلاةِ أَضْعَفِهِمْ ؛

حَتَّىٰ لا يُؤَدِّىَ التَّطْوِيلُ إِلَى فِتْنَةِ

مَنْ لا طاقَةَ لَهُ علَى الْإِطالَةِ.

أَمّا صَلاتُهُ : فَكانَ يَخْتارُ الْأَشَقَّ لِنَفْسِهِ،

فَهُوَ يُطِيقُ ما لا يُطِيقُهُ عامَّةُ الْمُؤْمِنِينَ،

وَعِبادَتُهُ فِيها ذِكْرٌ دائِمٌ لِلْقُرْآنِ . .

وَكانَ كَثِيرَ الِاسْتِغْفارِ، لِأَنَّها عِبادَةٌ،

فَهِىَ تَقْتَضِى الإِحْساسَ بِوُجُوبِ الِالْتِجاءِ إِلَى اللَّهِ - تبارك وتَعالَى - وَإِحْساسٍ بِالْقُصُورِ يَقْتَضِى التَّقَرُّبَ مِنْهُ

واسْتِشْعارَ عَظَمَتِهِ وَجَلالِهِ دُونَ مَنٍّ أَو ٱسْتِكْثارٍ،

فَكانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُحَصِّنُ عِبادَتَهُ بِالِاسْتِغْفارِ.

**عاشِرًا - الزُّهْدُ :**

كانَ زاهِدًا قَبْلَ الْبَعْثَةِ ، وَبَعْدَها ، كَما يَلِى:

**زُهْدُهُ قَبْلَ الْبَعْثَةِ:**

نَشَأَ يَتِيمًا فَقِيرًا ، كَفَلَهُ جَدُّهُ . .
وَلَمّا ماتَ انْتَقَلَ إِلَى عَمِّهِ ذِى الْعِيالِ ! . .
فَأَعانَه عَلَى كَفالَتِهِ بِالْعَمَلِ فِى رَعْيِ الْغَنَمِ ،
وَهُوَ فِى سِنٍّ صَغِيرَةٍ ! . .
ثُمَّ بَدَأَ يَتَّجِرُ بِالْمالِ ، واشْتُهِرَ بِأَمانَتِهِ . .
وَعَمِلَ فِى مالِ خَدِيجَةَ ،
وَتَضاعَفَ الرِّبْحُ على يَدَيْهِ ! . .
ثُمَّ تَزَوَّجَ خَدِيجَةَ ،
وَرُزِقَ بِالْمالِ الْوَفِيرِ فَلَمْ يَكْنِزْهُ ،
وَلَمْ يُعْرَفْ بِالثَّرْوَةِ قَطُّ ؛
لِأَنَّهُ كانَ يُنْفِقُ فِى أَوْجُهِ الْخَيْرِ ،
وَإِعانَةِ الْمُحْتاجِ ، وَإِغاثَةِ الْمَلْهُوفِ ،
وَمُشارَكَةِ ذَوِى الْحاجاتِ فِى شِدَّتِهِمْ ! . .

وَبِذٰلِكَ فَهُوَ مِثالٌ لِلزُّهْدِ الإيجابِيِّ،
زُهْدِ الْقادِرِينَ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ أَسْبابَ الْكَسْبِ الطَّيِّبِ،
ثُمَّ يَزْهَدُونَ فِى كَنْزِ وادِّخارِ الْمالِ،
وَلا يَتَفاخَرُونَ بِالْأَنْعامِ أَوِ الْحَرْثِ ؛
فَكانَ طَلَبُهُ الْكَسْبَ الْحَلالَ ،
لِيُنْفِقَ مِنْهُ عَلَى مَكارِمِ الْأَخْلاقِ، وَيُؤْثِرَ بِهِ غَيْرَهُ . .
وَكانَ يَتَناوَلُ الْحَلالَ ويَكْتَفِى بِأَقَلِّهِ،
وَلا يُحَرِّمُ مِنْ طَيِّبِ حَلالٍ ؛
فَما كانَ يَعْمَلُ لِتَعُودَ ثَمَرَةُ عَمَلِهِ عَلَى نَفْسِهِ،
وَإِنَّما لِتَعُودَ بِالنَّفْعِ عَلَى غَيْرِهِ! . .

**زُهْدُهُ بَعْدَ الْبَعْثَةِ:**

أَخَذَ زُهْدُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
بَعْدَ الْبَعْثَةِ صُورَةً أَجَلَّ وَأَعْظَمَ؛
فَحَمَلَ أَعْباءَ الرِّسالَةِ ،
وَزَهِدَ فِى الِاسْتِعْلاءِ بِالسُّلْطانِ ؛
لِيَكُونَ أُسْوَةً حَسَنَةً فِيما يُطَبِّقُهُ الْمُؤْمِنُونَ؛
فَهُوَ زُهْدُ الْعامِلِ فِى كُلِّ مَيادِينِ الْحَياةِ،
لا زُهْدَ الْعاكِفِ فِى الصَّوامِعِ ! . .

وَعِنْدَما خَيَّرَهُ اللَّهُ - تبارَك وتَعالَىٰ -
ٱخْتارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا نَبِيًّا ، لا أَنْ يَكُونَ مَلِكًا نَبِيًّا ! . .
وَكانَ زُهْدُهُ يَشْتَدُّ كُلَّما تَمَكَّنَ مِنَ الْمالِ ،
واتَّسَعَ سُلْطانُهُ، وَكَثُرَتْ تَكْلِيفاتُهُ لِتَرْبِيَةِ النَّفْسِ . .
وَبِذٰلِكَ كانَ يَدْعُو قَوْمَهُ بِلِسانِ الْفِعْلِ ، لا بِلِسانِ الْقَوْلِ .

وَمِنْ أَمْثِلَة ذٰلِكَ: أَنَّهُ كانَ يُواسِى فُقَراءَ الْمُسْلِمِينَ
قَبْلَ الْهِجْرَةِ ، وَيُنْفِقُ عَلَى الضُّعَفاءِ وَيُطْعِمُهُمْ ،
وَيكْتَفِى هُوَ بِالْقَلِيلِ الَّذِى يُقِيمُ أَوَدَهُ ! . .
وَعِنْدَما هاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ
كانَ لَهُ خُمْسُ الْغَنائِم ،

بِنَصِّ الْآياتِ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ . . . ﴿٤١﴾﴾ (سورة الأنفال)

فَكانَ يَأْخُذُ الْقَلِيلَ لِقِيامِ الْأَوَدِ لِيُقِيمَ صُلْبَهُ ! . .
وَكانَ يَنامُ عَلَى الْحَصِيرِ، حَتَّىٰ يُؤَثِّرَ فِى بَدَنِهِ ! . .
وَكانَ يَقُولُ: «مالِى وَلِلدُّنْيا ! . . ما أَنا إِلَّا كَراكِبٍ
اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، ثُمَّ راحَ وَتَرَكَها» . .
وَكانَ يَتَوَسَّدُ بِحَشِيَّةٍ مِنْ لِيفٍ ،
حَتَّى إِنَّ عُمَرَ - رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ وأَرضاه - لَمَّا رَآها بَكى ! . .

قُوتُ الزّاهِدِ: قالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:

( ما شَبِعَ نَبِيُّ اللّهِ - صَلَّىٰ اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
وَأَهْلُهُ ثَلاثَةَ أَيّام - تِباعًا -
مِنْ خُبْزِ حِنْطَةٍ ، حَتَّىٰ فارَقَ الدُّنْيا ) . .

وَقالَتِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ - رَضِى اللّهُ عنها وأرضاها - :

( ما شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ مِنْ خُبْزٍ، حَتَّى قُبِضَ . .
وَما رُفِعَ مِنْ مائِدَتِهِ كِسْرَةٌ قَطُّ ). أَيْ: إِنَّهُ كانَ يُقَدِّمُ
عَلَى مائِدَتِهِ ما يَكْفِى ، بِلا زِيادَةٍ تَفْضُلُ مِنْهُ! . .
وَكانَ لا يَنْفِى عَنِ الْخُبْزِ نُخالَتَهُ ! . .
وَما كانُوا يَأْكُلُونَ اللَّحْمَ إِلَّا قَلِيلًا ! . .

تَقُولُ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ - رَضِى اللّهُ عنها وأرضاها -:

( كُنّا آلَ مُحَمَّدٍ لَيَمُرُّ بِنا الْهِلالُ ما نُوقِدُ نارًا . .
إِنَّما هُما الْأَسْوَدانِ: التَّمْرُ والْماءُ . .
إِلَّا أَنَّهُ كانَ حَوْلَنا أَهْلُ دُورٍ مِنَ الأَنْصارِ
يَبْعَثُونَ إِلَى رَسُولِ اللّهِ - صَلَّىٰ اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
بِلَبَنٍ مِنْ مَنائِحِهِمْ؛ فَيَشْرَبُ، وَيَسْقِينا مِنْ ذٰلِكَ اللَّبَنِ ).

وَقَدْ دَعا الرَّسُولُ - صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقالَ:

« اَللَّهُمَّ: ٱجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا » ؛

أَىْ: فِى أَدْنَى الْقُوتِ ؛ لِيَكُونَ قُدْوَةً لِلْمُسْلِمِينَ فِى غِذاءِ فُقَرائِهِمْ. .

وَمَعَ هٰذا الزُّهْدِ الَّذِى الْتَزَمَهُ ،

ما كانَ يَدْعُو النّاسَ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُمْ لا يُطِيقُونَهُ!. .

وَكانَ - صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لا يَدَّخِرُ ذَهَبًا وَلا فِضَّةً،

حَتَّىٰ كانَ عِنْدَهُ فِى مَرَضِ الْمَوْتِ سِتَّةُ دَنانِيرَ !. .

فَما زالَ بِأَهْلِهِ حَتَّى تَخَلَّصَ مِنْها، وَقالَ:

« نَحْنُ مَعْشَرَ الْأَنْبِياءِ : لا نُوَرِّثُ ». .

وَكانَ ﷺ يُحَمِّلُ أَزْواجَهُ ما يَحْتَمِلُ، لِأَنَّهُنَّ آلُهُ !. .

وَهُوَ خَيَّرَهُنَّ أَنْ يَكُونَ رِزْقُهُنَّ قُوتًا لا نَعِيمَ فِيهِ ،

وَبَيْنَ أَنْ يُسَرِّحَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ. .

وَهُنَّ - رضىَ اللّٰهُ عَنْهُنَّ وَأَرْضاهُنَّ - بِالطَّبْعِ :

ٱخْتَرْنَ الرَّسُولَ - صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

وَعِشْنَ عِيشَتَهُ الزّاهِدَةَ ؛ فَكُنَّ جَدِيراتٍ

بِخاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَسَيِّدِ الزّاهِدِينَ !. .

## الْحادِى عَشَرَ - الصَّبْرُ والْمُصابَرَةُ :

كانَ - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
أَعْظَمَ مَثَلٍ لِلْمُؤمِنينَ فِى الصَّبْرِ،
يُعَلِّمُهُمْ - قَوْلًا وَفِعْلًا - قَوْلَهُ - تبارك وتعالىٰ - :

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ
وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾
(سورة آل عمران).

فَقَدْ رَبَّتْ فِيهِ النَّشْأَةُ الأُولَى خَصْلَةَ الصَّبْرِ،
مَعَ اسْتِمْساكِهِ بِالْفَضائِلِ ،
فِى وَسَطِ الرَّذائِلِ الَّتِى كانَتْ تَكْثُرُ فِى قَوْمِهِ ،
وَلا يَقْوَى عَلَيْها إِلَّا بِالصَّبْرِ ،
وَضَبْطِ النَّفْسِ، واجْتِنابِ الشَّهَواتِ . .
وَقَدْ كانَ يَصْبِرُ صَبْرًا جَمِيلًا ،
وَهُوَ الصَّبْرُ دُونَ شَكْوَى أَوْ تَمَلْمُلٍ ؛
بَلْ فِى ثَباتٍ واطْمِئْنانِ قَلْبِ مُؤْمِنٍ ،
فِيهِ تَفْوِيضٌ لِلَّهِ - تعالىٰ - بِغَيْرِ تَخاذُلٍ .
فَهُوَ يَصْبِرُ عَلَى الْفَقْرِ والنِّعْمَةِ . .
وَكِلاهُما يَحْتاجُ إِلَىٰ الصَّبْرِ ! . .

وَصَدَقَ - تبارك وتَعالَىٰ - إذْ يَقُولُ:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾

(سورة هود).

*** وَمِنْ مَظاهِرِ صَبْرِهِ وَمُصابَرَتِهِ ما يَلِى :**

- الصَّبْرُ عَلَى الْفَقْرِ فِى بَدْءِ حَياتِهِ،
وَرِضاؤُهُ بِالْقَلِيلِ، قَبْلَ الْبَعْثَةِ وَبَعْدَها.
- الصَّبْرُ عَلَى الْحِرْمانِ عِنْدَما تُوُفِّيَتْ أُمُّهُ،
ثُمَّ جَدُّهُ، ثُمَّ عَمُّهُ، ثُمَّ أَبْناؤُهُ واحِدًا تِلْوَ الآخَرِ،
ثُمَّ زَوْجَتُهُ الْحَبِيبَةُ خَدِيجَةُ
الَّتِى كانَتِ الزَّوْجَةَ الْحانِيَةَ الْمُواسِيَةَ!..
- الصَّبْرُ فِى دَعْوَةِ الْمُشْرِكِينَ وَتَحَمُّلِ أَذاهُمْ،
وَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُ وَرَمَوْهُ بِالسِّحْرِ والْجُنُونِ؛

فَكانَ يَصْبِرُ عَلَيْهِمْ؛ عَمَلًا بِقَوْلِ اللّهِ - تبارك وتعالىٰ - :

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ
وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ
لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ
فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

(سورة الأحقاف) .

وَلَمْ يَدْعُ عَلَى قَوْمِهِ قَطُّ، بَلْ كانَ يَقُولُ :

« إِنِّى لَأَرْجُو أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْنِ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ » . .

وَكانُوا يَرْمُونَهُ بِالْأَوْساخِ ؛ فَما كانَ يَغْضَبُ وَلا يَثُورُ، وَصَبَرَ عَلَى ٱسْتِهْزائِهِمْ وَأَذاهُمْ ! . .

- الصَّبْرُ عَلَى الْحِرْمانِ والْأَذَى مَعَ أَهْلِهِ ،
عِنْدَما قاطَعَتْهُمْ قُرَيْشٌ ثَلاثَ سِنِينَ دَأْبًا . .
لاقَوْا فِيها الْعُنْفَ والْجَفاءَ،
وَذاقَ مَعَ أَحِبّائِهِ مَرارَةَ الْحِرْمانِ والْقَطِيعَةِ ! . .

- الصَّبْرُ عَلَى أَهْلِ ثَقِيفٍ عِنْدَما دَعاهُمْ لِلْإِسْلامِ،
فَأَغْرَوْا سُفَهاءَهُمْ بِهِ يَقْذِفُونَهُ بِالْحِجارَةِ،
حَتَّى أَسالُوا دَمَهُ الشَّرِيفَ ! . .

فَكانَ الصّابِرَ الكَرِيمَ الَّذِى رَفَضَ عَرْضَ جِبْرِيلَ - عليه السَّلامُ - أَنْ يُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْجَبَلَيْنِ .

- الصَّبْرُ فِى مَيْدانِ الْحَرْبِ ،

وَكانَ الْمُجاهِدَ الثّابِتَ الَّذِى لا تُزَلْزِلُهُ قُوَّةٌ ! . .

وَخاصَّةً فِى غَزْوَةِ الأَحْزابِ ،

عِنْدَما اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْخارِجِ ،

والْيَهُودُ مِنَ الدّاخِلِ ! . .

يَقُولُ اللّهُ - تبارك وتعالى - :

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ
وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ
وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾
هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾

(سورة الأحزاب) .

- صَبَرَ عَلَى الْمُنافِقِينَ الَّذِينَ كانُوا يُظْهِرُونَ الإِيمانَ،

وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ، وَيُلْقُونَ بِالْيَأْسِ والْهَزِيمَةِ؛

فَيَسْتَجِيبُ لَهُمْ بَعْضُ ضُعَفاءِ الإِيمانِ . .

فَكانَ يَصْبِرُ عَلَيْهِمْ ، وَيَأْمُرُ أَصْحابَهُ بِالصَّبْرِ .

- صَبَرَ عَلَى الْيَهُودِ بِالرَّغْمِ مِنْ عِلْمِهِ بِمَكْرِهِمْ ؛ حَتَّى انْكَشَفَ أَمْرُهُمْ ، وَظَهَرَتْ خِيانَتُهُمْ ! . .

- صَبَرَ مُصابَرَةً شَدِيدَةً عِنْدَما أَشاعُوا السُّوءَ عَلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنها وأرضاها - وَلَمْ يَسْتَعْجِلِ الأَمْرَ . .

وَكانَ الْمَثَلَ الْكامِلَ فِي الثَّباتِ والْحِكْمَةِ، وَلَمْ تَغْلِبْهُ عاطِفَةٌ ، أَوْ تُؤَثِّرْ عَلَى صَبْرِهِ ! . .

- وَكانَ يُعَلِّمُ أَهْلَهُ والْمُؤْمِنينَ قِيمَةَ الصَّبْرِ وَمَكانَتَهُ بِقَوْلِ اللَّهِ - تبارك وتعالى - :

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾

(سورة البقرة) .

## الثّانِى عَشَرَ - الْعَدْلُ :

كانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِى مُعامَلاتِهِ كُلِّها عادِلًا لا يَظْلِمُ وَلا يَخْدَعُ، وَكانَ يَنْتَصِفُ مِنْ نَفْسِهِ . .

والْأَمانَةُ والْعَدْلُ صِنْوانِ؛
فلا يَكُونُ الْعادِلُ غَيْرَ أَمِينٍ ،
أَوِ الْأَمِينُ غَيْرَ عادِلٍ . .

يَقُولُ اللهُ - تبارك وتعالىٰ - :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا
وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ
إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٥٨﴾

(سورة النساء) .

وَلِذٰلِكَ كانَ خُصَماؤُهُ يَتَحاكَمُونَ إِلَيْهِ؛
لِما عُرِفَ عَنْهُ مِنْ أَمانَتِهِ وَعَدْلِهِ واسْتِقامَتِهِ . .
وَكانَ يُعْطِى لِكُلِّ ذِى حَقٍّ حَقَّهُ،
يُعْطِى الرَّجُلَ مِن الْغَنِيمَةِ بِقَدْرِ جِهادِهِ.
كانَ يَخْشَى - لِفَرْطِ إِحْساسِهِ بِقِيمَةِ الْعَدْلِ -
أَنْ يَلْقَى اللَّهَ وَعَلَيْهِ حَقٌّ لِلْعِبادِ ،

فَقامَ - وَهُوَ فِى مَرَضِ الْمَوْتِ، يُعانِى الْإِعْياءَ الشَّدِيدَ - يَقُولُ لِلْمُسْلِمِينَ:

«أَيُّها النَّاسُ: مَنْ كُنْتُ قَدْ جَلَدْتُ لَهُ ظَهْرًا ،
فَهٰذا ظَهْرِى فَلْيَسْتَقِدْ مِنْهُ..
وَمَنْ كُنْتُ شَتَمْتُ لَهُ عِرْضًا ،
فَهٰذا عِرْضِى فَلْيَسْتَقِدْ مِنْهُ..
وَمَنْ أَخَذْتُ مِنْهُ مالًا، فَهٰذا مالِى فَلْيَأْخُذْ مِنْهُ..
وَلا يَخْشَ الشَّحْناءَ، فَإِنَّها لَيْسَتْ مِنْ شَأْنِى..
أَلَا، وَإِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَىَّ: مَنْ أَخَذَ مِنِّى حَقًّا إِنْ كانَ لَهُ،
أَوْ حَلَّلَنِى، فَلَقِيتُ رَبِّى وَأَنا طَيِّبُ النَّفْسِ.»

وَكانَ يُؤَكِّدُ عَلَى النَّهْيِ عَنِ الظُّلْمِ،
وَأَكْلِ أَمْوالِ النّاسِ بِالْباطِلِ، وَعَنْ مُعاوَنَةِ الظّالِمِينَ،
فَيَقُولُ: «اِتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ،
فَلَيْسَ بَيْنَها وَبَيْنَ اللَّهِ حِجابٌ.»

وَقالَ ﷺ: «مَنْ مَشَى مَعَ ظالِمٍ، فَقَدْ سَعَى إِلَى النّارِ.»

كَما نَهَىٰ الْمَحْكُومِينَ عَنِ السُّكُوتِ عَنْ ظُلْمِ الْحُكّامِ، قالَ - صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :

« لا يَأْخُذُ اللّهُ - تعالَى - الْعامَّةَ بِظُلْمِ الْخاصَّةِ ،

إِلَّا إِذا رَأَوْا وَلَمْ يُنْكِرُوا » . .

وَأَوْجَبَ - صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَمْلَ الظّالِمِ عَلَى الْعَدْلِ .

وَيُفْهَمُ مِنْ ذٰلِكَ شِدَّةُ تَمَسُّكِهِ بِالْعَدْلِ ؛

لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى اسْتِقامَةِ النَّفْسِ ،

سَواءٌ بِالنِّسْبَةِ لِلْحاكِمِ أَوِ الْمَحْكُومِ . .

كَما أَنَّهُ يَدْعُو إِلَى الْعَدْلِ الْجَماعِيِّ فِى الْمُجْتَمَعِ كُلِّهِ؛

بَيْنَ الرَّجُلِ وَأَهْلِهِ، وَبَيْنَ الرَّئِيسِ والْمَرْءُوسِ،

وَبَيْنَ الْحاكِمِ والْمَحْكُومِ.

كانَ - صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

يَقْضِى بَيْنَ النّاسِ بِالْعَدْلِ ؛

لا يُحابِى قَوْمًا ، وَلا يَهْضِمُ حَقَّ ضَعِيفٍ . .

وَعِنْدَما سَرَقَتْ فاطِمَةُ الْمَخْزُومِيَّةُ ،

رَفَضَ شَفاعَةَ أُسامَةَ بْنِ زَيْدٍ، وَكانَ مُحَبَّبًا لَهُ ؛

فَكانَتْ أَحْكامُهُ - صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَتَّسِمُ بِالْعَدْلِ والْمُساواةِ،

لا فَرْقَ فِيها بَيْنَ شَرِيفٍ وَفَقِيرٍ، وَقالَ قَوْلَتَهُ الشَّهِيرَةَ:

« واللَّهِ، لَوْ سَرَقَتْ فاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ،
لأَقَمْتُ عَلَيْها الْحَدَّ . » . .
وَكانَ يُغَلِّظُ الْعُقُوبَةَ عَلَى مَنْ يَكْثُرُ فَسادُهُ ؛
حِمايَةً لِجَماعَةِ الْمُسْلِمينَ . .
كَما كانَ يُعَلِّمُهُمْ أَلَّا يَقْبَلَ أَحَدٌ
أَنْ يَأْكُلَ حَقَّ غَيْرِهِ ،
إِذا أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ لِلْحاكِمِ أَوِ الْقاضِى ،
لِدَرَجَةِ أَنْ يَقْضِىَ لَهُ بِهِ ، فَقالَ :
« إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَىَّ . .
وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنَ الْآخَرِ . .
فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ ،
فَإِنَّما أَقْتَطِعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النّارِ . » .
وَكانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
الْعَدْلَ الْمُطْلَقَ فِى الْمُساواةِ بَيْنَ زَوْجاتِهِ
فِى كُلِّ الْجَوانِبِ الْمادِّيَّةِ مِنْ طَعامٍ وَشَرابٍ وَمَلْبَسٍ .

**الثّالِثَ عَشَرَ - الشَّجاعَةُ :**

كانَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
شُجاعًا فِى نَفْسِهِ ، وَفِكْرِهِ ، وَقَلْبِهِ !..
كانَ الْمَثَلَ الْكامِلَ لِلشَّجاعَةِ الَّتِى لا تَهابُ
الْمُخالِفَةَ فِى الْحَقِّ؛ فَلَمْ يَسْجُدْ لِصَنَم قَطُّ !..
مَعَ أَنَّ قَوْمَهُ جَمِيعًا يَسْجُدُونَ لِلأَصْنام..
وَلَمْ يَحْلِفْ أَوْ يَقْبَلْ حَلِفَ أَحَدٍ بِصَنَمٍ !..
مَعَ أَنَّهُمْ جَميعًا كانُوا يَحْلِفُونَ
وَيَسْتَحْلِفُونَ بَعْضَهُمْ بِالْأَصْنامِ !..

**وَمِنْ مَظاهِرِها :**

قَبُولُ الْحُكْمِ بَيْنَ قَبائِلِ الْعَرَبِ جَمِيعًا
فِى وَضْعِ الْحَجَرِ الْأَسْودِ فِى مَكانِهِ ،
رَغْمَ عِلْمِهِ أَنَّ الْحَكَمَ لا يَسْتَطِيعُ إِرْضاءَ الْجَمِيعِ؛
وَلٰكِنَّهُ أَرْضاهُمْ جَمِيعًا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ !..
وَتَتَّضِحُ شَجاعَتُهُ فِى مُواجَهَةِ الْمُشْرِكِينَ ،
والِاسْتِمْرارِ فِى دَعْوَةِ الْحَقِّ ، رَغْمَ تَهْدِيدِهِمْ !..
فَواجَهَ عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ بِقُوَّةٍ

- وَكانَ جَبّارًا قَبْلَ إِسْلامِهِ - حَتَّى أَسْلَمَ!..

وَكانَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
ثابِتًا شُجاعًا عِنْدَ الْهِجْرَةِ، عِنْدَما أَوَى إِلَى غارِ ثَوْرٍ ،
هُوَ وَصاحِبُهُ ، وَقَدْ أَحاطَ بِهِما الْقَوْمُ لِقَتْلِهِما !..
وَعِنْدَما هَمَّ الْيَهُودُ بِقَتْلِهِ غِيلَةً وَغَدْرًا ،
بِرَمْيِ حَجَرٍ - مِنْ عُلُوٍّ - عَلَيْهِ ،
وَبِدَسِّ السُّمِّ فِي طَعامِهِ ؛
فَما خافَ وَلا تَوَقَّفَ عَنِ الدَّعْوَةِ ،
بَلِ اسْتَمَرَّ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْحَقِّ !..

**شَجاعَةُ الرَّسُولِ** - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي مَيْدانِ الْقِتالِ:

كانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
الْقائِدَ الَّذِي يُوَجِّهُ الْجُنْدَ إِلَى الْقِتالِ والْجِهادِ ؛
فَكانَ يَتَوَجَّهُ هُوَ إِلَى مَيْدانِ الْقِتالِ ؛
لِيَكُونَ الْقُدْوَةَ الْحَسَنَةَ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَدْعُو إِلَيْهِ ،
وَلا يَضِنُّ بِنَفْسِهِ، وَلا يَسْتَأْثِرُ بِالرّاحَةِ ،
وَهُوَ عَلَى رَأْسِ الْمُجاهِدِينَ ثابِتٌ لا يَبْرَحُ ،
مُقْبِلٌ غَيْرَ مُدْبِرٍ..

وقَدْ أَمَرَهُ اللَّهُ بِقِتالِ الْمُشْرِكِينَ إذا واجَهُوهُ ،
وَلَوْ كانَ وَحْدَهُ ،
يَقُولُ اللَّهُ - تبارَك وتَعالَىٰ - :

﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾

(سورة النساء) .

رُوِىَ عَنْ عَلِيّ بْنِ أَبِى طالِبٍ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - أَنَّهُ قالَ :
( كُنّا إذا حَمِى الْبَأْسُ، واحْمَرَّتِ الْحَدَقُ ،
اتَّقَيْنا بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
فَما يَكُونُ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ . .
وَلَقَدْ رَأَيْتُنِى يَوْمَ بَدْرٍ، وَنَحْنُ نَلُوذُ بِالنَّبِىِّ
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ أَقْرَبُنا إِلَى الْعَدُوِّ ! . .
وَكانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَأْسًا ) .
وَكانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
قَوِىَّ الِاحْتِمالِ مَعَ شَجاعَةٍ ،
فَقَدْ جُرِحَ واشْتَدَّتْ جِراحُهُ ،
وَنَزَفَ دَمُهُ الشَّرِيفُ ! . .
وَمَعَ ذٰلِكَ كانَ يُداوِمُ عَلَى الْحَرْبِ ،
وَلَمْ يَهِنْ أَوْ يَسْتَكِنْ ! . .

## الرّابعَ عَشَرَ - الرُّجُولَةُ :

يَقُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :

« ما بَعَثَ اللَّهُ - تَعالَى - نَبيًّا
إلَّا حَسَنَ الْوَجْهِ حَسَنَ الصَّوْتِ » ،
وَكانَ نَبيُّنا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
أَحْسَنَهُمْ وَجْهًا ، وَأَحْسَنَهُمْ صَوْتًا ! . .
فَكانَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
جَميلًا فِي خُلُقِهِ ، وَفِي جِسْمِهِ ! . .

رَوَى هِنْدٌ رَبيبُ الرَسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي وَصْفِهِ :

( جِسْمُهُ يَجْمَعُ بَيْنَ الْجَمالِ والْكَمالِ . .
وَجْهُهُ يَسْتَرْعِي الِانْتِباهَ إشْراقًا وَنُورًا ! . .
كُلُّ ما فِيهِ يَسْتَرْعِي الِانْتِباهَ والأَنْظارَ ! . .

مَنْ يَلْقاهُ يَجِدْهُ مِثالَ الرَّجُلِ ، لا يَتَقَدَّمُ مُتَباهِيًا أَوْ مُعْتَزًّا ، يَسِيرُ مُتَواضِعًا ، يُلْقِي السَّلامَ عَلَى مَنْ يَلْقاهُ لِيُشْعِرَهُ بِالْمَوَدَّةِ، جَمِيلُ التَّنْسِيقِ والتَّكْوِينِ فِي جِسْمِهِ ! . .

ما ثارَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الآخَرِينَ شَحْناءُ أَوْ عَداوَةٌ

قَبْلَ البَعْثَةِ فَكانَ مَأْلُوفًا ! . .)

لَهُ جاذِبِيَّةٌ شَدِيدَةٌ تُعْلِنُ الطِّيبَةَ والنَّقاءَ ،

والنَّفْسَ الطّاهِرَةَ الْمُسالِمَةَ ! . .

**وَيتَّصِفُ بِما يَلِى:**

- جَمالُ وَكَمالُ التَّكْوِينِ الْجِسْمانِيِّ.
- قَلْبُهُ الطّاهِرُ يَشِعُّ نُورًا عَلَى وَجْهِهِ ؛

أَىْ: أَنَّهُ وضَّاءُ الْجَبِينِ.

- يَتَمَيَّزُ بِشِدَّةِ الْجاذِبِيَّةِ مَعَ الْهَيْبَةِ.
- لَهُ قُوَّةُ شَخْصِيَّةٍ.

كَما كانَ حَرِيصًا عَلَى التَّطَيُّبِ،

يُعْنَى بالنَّظافَةِ فِى المَظْهَرِ ، كَما فِى الْمَخْبَرِ ،

يُعْنَى بِنَظافَةِ النَّفْسِ .

وَكانَ يَقُولُ:

« بُنِىَ الدِّينُ عَلَى النَّظافَةِ ».

## الْخامِسَ عَشَرَ - الْعَزِيمَةُ وَقُوَّةُ الْإِرادَةِ :

يُوصَفُ الرُّسُلُ بِأَنَّهُمْ أُولُو الْعَزْمِ . يَقُولُ اللَّهُ - تبارك وتعالىٰ - :

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ ( سورة الأحقاف ) .

وَيَصِفُ تبارك وتعالىٰ آدَمَ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - بِقَوْلِهِ :

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ . ( سورة طه ) .

فالْعَزِيمَةُ - إِذَنْ - مِنْ شِيَمِ الرُّسُلِ :

أَصْحابِ الْمَكانَةِ الْعالِيَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعالَىٰ . .

وَقَد اتَّضَحَ هٰذا - بِجَلاءٍ - فِى قُوَّةِ الإِرادَةِ

الَّتِى تَمَتَّعَ بِها - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

عِنْدَما جاءَهُ الْوَحْىُ فِى بَدْءِ الرِّسالَةِ ،

وَطَلَبَتْ قُرَيْشٌ مِنْ عَمِّهِ أَبِى طالِبٍ

أَنْ يَطْلُبَ مِنِ ٱبْنِ أَخِيهِ أَنْ يَتْرُكَ أَمْرَ الرِّسالَةِ ،

فَقالَ لِعَمِّهِ قَوْلَتَهُ الشَّهِيرَةَ :

« واللَّهِ ، لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ عَنْ يَمِينِى ، والْقَمَرَ عَنْ يَسارِى ،

عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هٰذا الْأَمْرَ : ما تَرَكْتُهُ ،

حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ ، أَوْ أَهْلِكَ دُونَهُ . »

واسْتَمَرَّ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

فِي دَعْوَتِهِ، لا يَتَخاذَلُ فِيها أَبَدًا،

وَلا يَتَهاوَنُ فِي الْجِهادِ فِي نَشْرِ الدَّعْوَةِ

- بالرَّغْمِ مِمّا لاقاهُ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ عَداوَةٍ وَإِيذاءٍ،

وَمِنَ الْمُشْرِكِينَ والْيَهُودِ مِنْ خِيانَةٍ،

فَكانَ لا يَكِلُّ وَلا يَيْأَسُ وَلا يَتَخاذَلُ لَحْظَةً

فِي نَشْرِ الدَّعْوَةِ الَّتِي كَلَّفَهُ بِها اللَّهُ - تبارَكَ وتَعالَىٰ -

حَتَّى أَتاهُ الْيَقِينُ.

وَبِذٰلِكَ كانَتْ حَياتُهُ كُلُّها - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

مِثالًا رائِعًا تَحْتَذِي بِهِ الإِنْسانِيَّةُ كُلُّها

فِي الْعَزِيمَةِ الصّادِقَةِ وَقُوَّةِ الإِرادَةِ فِي الْحَقِّ ! . .

( تَمَّ الْكِتابُ بِعَوْنٍ مِنَ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ )

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٥/٢٨٧٤

مَطْبَعَةُ الْكِيلانِيّ
٢٢ ش الأديب كامل كيلاني - باب الخلق
ت : ٣٩١٨٥٩٨ - ٠٢/٣٩٥١٥٤٣